أصوات معاصرة
السنة 26- العدد 150 - اغسطس 2005م

مجنون أحـــلام

قصص قصيرة

د. حسين علي محمد

(الطبعة الأولى)



مُعاصرة

أسسها :
د. حسين على محمد
أبريل 1980

المراسلات : 13 ش مدرسة التجارة – ديرب نجم – شرقية
مجدى محمود جعفر 3767986 / 055

مجنون أحلام

الإهداء

إلى الصديق الكاتب المسرحي
علي محمد الغريب

«ليست الحياة ما عاشه المرءِ، لكن

ما يتذكره وكيف يتذكره لكي يرويه»

ماركيز



مجنون أحلام

«صالوننا» طائرٌ في البراري، وسائقه معصوب الرأس، مفتونا بغناء جميل، يتصاعدُ من إذاعة صنعاء:

يا ريم وادي ثقيف لطيف جسمك لطيف
ما شفت أنا لك وصيف في الناس شكلك ظريف

وتحاول «أحلامُ» أن تُحرِّك شفتيها بالغناء من تحت الخمار، و«العزي» سائق الصالون، يسألني:

. أغنية جميلة يا أستاذ ..؟

فأشير برأسي.

لكنه يريد مني إجابة، فأقول وأنا أضع يديّ . كالبوق . على أذنه:

. ن .. ع .. م!!!

فيضحك!، ويقول:

. أنا كنت أقول إنها ستعجبك!

* * *

كنتُ جالسا منذ اسبوعين . في أواخر شعبان . على صخرة ناتئة، على جانبِ طريق جبلي عال من أرض «الوصاب السافل»، حين رأيتُ الموجة ذاتَها، تخرجُ من بيتٍ قرميدي قديم، وترُشّ برذاذها وجهي، وثيابَ «عاطف».

كنا يوم خميس، وكنتُ صائما، فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وطلبتُ من عاطف أن نعود لسكننا لنجهز الإفطار.

نظراتُ «عاطفٍ» . صديقي، وزميلي في تدريس اللغة العربية في مدرسة معلمي بني علي، الذي يجلس جواري . تُلاحقها وهي تواصلُ انحدارها نحو البئر، خلف حمار ضرير . كما عرفتُ منها، فيما بعد . لتملأ من مائه «دابّتين»!

* * *

في اليوم التالي .. يوم الجمعة .. كانت عيناها ساعة الغروب قنديلين يضيئان سمائي، وأنا في طريقي لبقالة «قايد»، لأشتري . بالأجل . البامية، أو البازلاء، ودجاجة صغيرة، أطهوها بعدَ صلاة المغرب، ثم أذهب لبقالة قايد لأجلس على كرسي مهمَل قديم وأستمع للحلقة الأخيرة من مسلسل «هند، والدكتور نعمان» من بطولة كمال الشناوي.

كنتُ عائدا من بيتِ الشيخ محمد الأهدل حيثُ أشرحُ لابنه . في مدرسة المعلمين . درسا صعبا من دروس النحو، قبل الامتحان الذي يأتي بعد أسبوع.

انحدرت من شارع هابط إلى الطريق .. ومشت بجواري..

رافقتني إلي البقالة، وحدثتني عن طفلها اليتيم «عادل»، الذي لا يتحرك رغم بلوغه الخامسة، وعن بيتهم شبه المهدم بجوار المسجد الجامع الذي نصلي فيه الجمعة، ونحضر إليه مبكرين لنصلي ركعتين ثم نقرأ فيه «سورة الكهف» قبيل ارتقاء الإمام المنبر.

...

بجوار "بقالة قايد" خيمة هدمتها الأمطار والريح.

قالت:

«بيتنا يشبه هذه الخيمة!».

وابتسمت، في مرارة ..، وأنا، قاب قوسين أو أدنى من الموت إعجابا بها، ولا يشغلني إلا بهاؤها، وجمالُ صوتها.

وكنتُ قد رأيتُ وجهها عدة مرّاتٍ وهي هابطة إلى البئر، لتملأ الوعاءين.

كانت الطرقات ذاهلة، وكان الشيخ «قايد» مشغولا بالمداعة، وبجواره . على الأرض . خنجره ومدفعه!، وطفل وطفلة يلعبان .. وهو جالس بملابسه الداخلية، ورذاذ المطر الخفيف تتشربه الأرض، كما يتشرب الخمارُ دموع الأرملة التي لا أعرفُ اسمها!

وهو يُضاحكني:

. المسلسل يعجبك يا أستاذ عبد السلام؟ .. باق ساعة ونصف، سأنتظرك بعد صلاة العشاء.

ويأخذ نفسا من المداعة، ثم يضيف في صوتٍ حان:

. لا بد أن تُشاهد معي الحلقة الأخيرة!

وأنا أقولُ مؤكدا:

. لا بد.

قال عبده، ابن الشيخ قايد . تلميذي في مدرسة المعلمين . أمام التلاميذ في الصباح:

. مع منْ كنتَ تمشي وتتحدّث يا شيخُ وأنت عائد من بيت الأستاذ محمد الأهدل مساء أمس؟

لم أجب.

أضاف:

. كنتُ عائدا من «بني محمد» فرأيتُكما أمامي في الطريق.

تجاهلتُ قوله، فأضاف:

. هذه الأستاذة "أحلام"!

قلتُ:

. لا أعرف اسمها!!

قال:

. ابنة المرحوم الشيخ عبد الله العلوي، شيخ القبيلة السابق.

وأضاف، متبرعا بتعريفي:

. وأرملة سلطان بن نايف العلوي، المدير السابق بوزارة الخارجية، بصنعاء.

سألتُ مستفسرا:

. ولماذا جاءت إلى بني علي؟

. زوجها مات في حادث مرور، منذ عام، وعادت لتقيم مع خالتها في بيت أبيها.

أردف موضحا:

. تُناديها أمها!

كدتُ أسأل:

. ولكن، هل المرأة التي عاشت في صنعاء تستطيعُ العيش في هذه القرية الجبلية الصعبة؟ وتنزل لتملأ الماء من البئر؟

لم يُمهلني، فأكمل:

. هي حاصلة على بكالوريوس في التربية، وتُريد أن تسافر للقاهرة لتحصل على الدكتوراه! إنها تعمل معيدة بكلية التربية في جامعة صنعاء.

استفسرتُ:

. كيف تكون مُعيدة وهي مقيمة هنا أيام الدراسة؟

قال:

. بذلت وساطات، وأخذت إجازة لمدة عام!

ووجدها التلاميذُ فرصة سانحة للكلام وارتفاع أصواتهم، فاضطررتُ أن أتجاهل كلامه، وأمضي في شرح الدرس.

بعد خروج التلاميذ من المدرسة جاء عبده إلى حجرتي، وقال لي بعد أن تأكد من أنّني وحدي:

. كنتُ أول أمس مع زميلي مهند.

. من مهند؟

. ابن عم الأستاذة أحلام.

لم أتكلم، فأضاف:

. سألتني عنك، فقلتُ لها إنك دكتور.

. لم أناقش بعد الدكتوراه يا عبده .. سأناقشها الشهر القادم.

ضحك:

. ما تفرق يا أستاذ .. الأستاذ بركات مفتش اللغة العربية في ذمار قال لنا إنك دكتور في التاريخ من جامعة الأزهر، وإنك ستدرِّس هذه السنة فقط في بني علي .. أما العام القادم فقد تدرس في جامعة مصرية.

واستطرد:

. لماذا لا تبقى هنا لكي تدرس التاريخ في جامعة صنعاء يا أستاذ؟

***

أتوجهُ لصلاة الجمعة، أبطئُ من خطوي أمام باب دارها، الذي كان في هذا اليوم مفتوحا. فوجدتها فرصة لاستراق النظر: رأيتُ طفلها ذا السنوات الخمس جالسا، وأمامه بعض اللعب، ورأيتُ وجهها سافرا، وكانت تكلم عجوزا (عرفتُ فيما بعد أنها خالتها أو أمها كما تُناديها أحيانا).

سمعتها تقول: منذورة لسبع عجاف، يا خالتي.

وخالتُها تقولُ: فرحك قريب، ربما قاب قوس، أو أدنى، سأزوجك ابن أخي في ذمار.

فكدتُ أقع على وجهي. أنا الذي أحلم بها، وتُطاردُني في أحلامي. بين الصخور الناتئة!

***

كان «عاطف» قد ذهب صباح الخميس لزيارة صديقه «يوسف» مدرس اللغة العربية في قرية «الثلوث» بالوصاب العالي، وتركني .. فاستسلمت أبوابُ قلبي لخوفٍ مُقبل، وحزنٍ مُقيم.

ساعة خروج التلاميذ من المدرسة ابصرتُها.. أهي «أحلام»؟!

جاءت تسأل عن ابن عمها مهند، وعن مستواه في الدراسة.

كانت منقبة.

حينما رأيتُها على باب حجرتي، في المدرسة قلتُ لها:

- هل ستتزوّجين ابن خالك في ذمار؟!

ضحكت:

- ابن خالي حزام؟!! .. لا..

- هل هو متعلم؟

- إنه طبيب .. متخرج من موسكو.

- لماذا إذن لا تسمعين كلام خالتك؟

- إنه يريد أن يتزوّج الآن ويستقر.. وأنا - كما قلتُ لك - سأذهب مُبتعثة للقاهرة بعد خمسة أشهر، مع بدء العام الدراسي الجديد لأكمل دراساتي العُليا، في تربية عين شمس، ولأحصل على الماجستير والدكتوراه؟

قلتُ وقد فارقني اليأس:

- هل تذهبين وحيدة؟

- سآخذ ابني معي.. لأعالجه!

كانت شجرة النبق ذاوية الغصون، وكان طائرٌ غريبٌ على طرف الحجرة الشرقية يبكي جرحه الجديد، وكنتُ مثقلا بالتأويل المطارد لسر حبي القديم لهيفاء الذي ذبل قبل أن يكتمل، وعن فشلي المتكرر في تجارب مُشابهة، وتذكري لجراح لا تبرأ!!

وتذكرتُ «عاطف» - الذي كان منتشيا - ليلة الأمس وهو يسكبُ الملحَ على جراحي:

. كيف بلغتَ الثانية والثلاثين ولم تتزوّج بعد؟
وضحك:
. أنا في مثل عمرك، ولديّ ولد عمره خمسة أعوام، وسيأتي مع أمه لنعيش معا في ذمار في العام المقبل؛ سأدرس في مدرسة عثمان بن عفان الإعدادية للبنات . كما وعدني الأستاذ بركات . وزوجتي أخصائية اجتماعية سأحاول أن أجد لها عملا في نفس المدرسة.
... وكنا . ساعتها . نستمع إلى أم كلثوم تشدو بأغنية قديمة عن «أهل الهوى»، ونحن نجلس أمام سكننا في ضوء القمر، فالكهربا تُطفئ أنوارها في التاسعة مساء!
تعمل من السادسة للتاسعة فقط!

* * *

قالت «أحلام»:
. متى ستذهبان إلى صنعاء؟
. بل قولي متى ستذهب؟
. ألن تذهب مع الأستاذ عاطف؟
. ستنتهي علاقتنا بالمدرسة بعد إعلان النتيجة يوم 14 رمضان، ونأخذ من المدير «إخلاء طرف».
استفسرت بعينيها، فأضفتُ:
. سيذهب «عاطف» لصديقه يوسف في «الثلوث» بالوصاب العالي ليمضي معه أقل من أسبوع، ثم يذهبان إلى صنعاء للسفر إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان.
سألت:
. وأنت؟ ما خطتك؟
. سأذهب في صباح الخامس عشر إلى الحديدة لأمضي خمسة أيام هناك، لشراء بعض الهدايا لأخواتي، ثم أمضي إلى صنعاء لأقيم فيها يومين قبل العودة إلى مصر.
قالت في نبرة حاسمة:
. أنا مُسافرة إلى صنعاء في اليوم نفسه، في «صالوننا»

الخاص. إذن آخذك معي إلى الحديدة.
. هل خالتك ستكون معك؟
. ستكون معي إلى أول مرحلة في الطريق، ثم تنزل عند بنتها في «الجرّاحي»؟
رآتني منشغلا، فسألت:
. هل تعرف الجراحي؟
. نعم، نمتُ فيها ليلة واحدة في فندق فقير، هو فندقها الوحيد كما أظن، ولن أنساها لأني أصبتُ فيها بالملاريا!!
ضحكت.

* * *

هانحن في منتصف رمضان. ويوشك اليومُ أن ينتصف .. أبدو مستسلما في دروعي الداجنة..
و«أحلامُ» ساكتة.. أو تحدثُ خالتها بصوت منخفض.
يجلسان في الكرسي الثالث.
وأنا أجلسُ بجوار السائق الذي يدندن مع أغنية شعبية لليلى نظمي تنطلق من إذاعة صنعاء.
وكأنه تذكر أن معه أشرطة، فأخرج شريطين لصباح ومحمد رشدي من الدرج الذي أمامه.
«أحلام»؟!!
(أيمكنُ أن يكون هذا اسمها؟)
لم تسأل عن طقوس القتل أو شكل السلاح!
ليس لي أمل في شهوة الجموح، وأنا أستمع إلى صوتها، أو أرى وجهها . كما رأيته في الطريق إلى البئر، أو أمام حجرتي بالمدرسة . فهي مُحاصرة بابنها "عادل" ذي السنوات الخمس، وخالتها العجوز.. والنسر الذي لم يطر منذ ثمانية أشهر، وقابعٌ في غرفة، في مدرسة، في بني علي، لا يبدو أنه قادرٌ على التحليق.. أو جامحٌ على التدجين!!

* * *

ما هذه الحشائش الطرية ... في سهول زبيد؟

باق أقل من ساعة ونصل إلى «الجرّاحي».. تلك القرية الملتهبة في أول يونيو..

خالتها نامت، الاحظ أن كثيرا من العجائز ينمن في السفر؟ .. لماذا لا تكلمني «أحلام» عن بعثتها القادمة، وما ننوي أن نفعله معا بحياتنا؟

أخَذَت عنواني في «المعَادي» ورقم هاتفي..

لماذا تجلسُ «أحلامُ» وحيدة في الكرسي الأخير من «الصّالون»؟

هل قطعت . قبلَ أن تجيء اليومَ معي . حبلا للعجوز، كي تغلق بابها الأخير، ورغبتها في الزواج من ابن أخيها في ذمار؟، وهل أخبرتها أنها تنوي أن تتعلق في صارية نسر مصري جريح، هو نسرها الأخير؟.

وهل تجيء إلى «المعادي» تاركة أحزانها في قمة الجبل؟

وهل تعودُ الحياة إلى ساقيْ ابنها في المعادي فنراه يلعبُ مع أقرانه، بينما «هي» تصهلُ صهيلَ الأرض المتشققة للماء؟!!

أخبرتها أنني سأناقش الدكتوراه في التاريخ الإسلامي في هذا الصيف، وإنني سلمتُ الرسالة للمناقشين في أوائل سبتمبر الماضي، ونزلتُ من بني علي إلى الجراحي عدة مرات لأسألهم هاتفيا عن الموعد فقالوا في آخر يونيو، أي بعد تسعة وعشرين يوما من الآن؟

* * *

سألتُ الشيخ الأهدل (وهو ناظر مدرسة معلمي بني علي، وحاصل على الماجستير في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية):

. هل من الممكن أن أتزوّج يمانية؟

فضحك:

: ولماذا تتزوّج يمانية، وأحد شيوخنا . عرفتُ فيما بعد

أنه الإمام الشافعي . قال «من لم يتزوّج مصرية فليس بمحصن؟».

قلت جادا:

. أنا أسألُ: هل تمنعُ التقاليد والأعراف هنا زواجي من يمانية إن أردتُ أنا وأرادت هي؟

قال مبتسِما (وهي عادة له عند الكلام):

. لابد من الكفاءة.

قلت وأنا جاد:

. أنا من الأشراف؛ أمتلك وثيقة نسب مؤكدة من وزارة الداخلية.

وابتسمتُ:

. معي صورة منها، داخل حقيبتي هذه!

ضحك، ونظر في عينيّ كأنه يعرف مقصدي:

. حسني أم حسيني؟

. حسني.

. إذن، على بركة الله، لا مشكلة!

* * *

هاهو «صالوننا» طائرٌ في البراري، وسائقه معصوب الرأس، مفتونا بغناء جميل، يتصاعدُ من إذاعة صنعاء بعد أن أغلق المسجل:

يا ريم وادي ثقيـف لطيف جسمك لطيف

ما شفت أنا لك وصيف في الناس شكلك ظريف

يهز رأسه يمنة ويسرة.

في كلِّ خطوةٍ موجة..

و«أحلامُ» المنتشية بأشجار تتكاثرُ في السهل.. تشيرُ إلى كلِّ موجةٍ في سيول زبيد.. وتعدني . قبل صهيل البداية . أن تظل شجرة مورقة، ونهرا يدفق بالخصبِ، لا يقاربُه جفاف، وأن تظل دائما الأم، والزوجة، والبنتَ.. وشجرة توتٍ أخضر، تعطي بامتدادِ الفصول والمواسم.

كنتُ مفتونا، أغلق نوافذ فكري، لا أفكر في العاقبة..
ألم أعرض عليها الزواج أمس؟ ووافقت؟
ووحدها.. كانت ترى الخضرة في الأفق، والأيائل في البراري، والشموسَ تضيءُ الغدَ، وابنَها - القعيدَ - يعدو في طرق جميلةٍ مُعبّدةٍ.

* * *

نزلت خالتها في الجرّاحي، وانطلق بنا «الصالونُ» إلى زبيد.. فالحديدة.
أراها تنظر إلى الأفق مستبشرة.
لم تتكلمْ بعدُ... فمازالت مدينة الحديدة بعيدة، والأرضُ مترامية. والخطى التي غادرت عتمة الوصاب.. تتأملُ في لحظاتٍ تليقُ ببداية جديدة!

الرياض 2003/5/20م

برق فى خريف

عندما رآها مصادفة على مدخل محطة مصر، رجعت إلى ذاكرته ثلاثون سنة من الوجد والانتظار. صاح في قلبه توق قديم إلى وجهها الأبيض الجميل الذي لم يُغيره الزمن:

. نادية حمدي؟! .. غير معقول!

أشرقت في عينيها ذكرى قديمة، أن تُخرج له مسرحيته الفصيحة «الثائر» في «بيت القاضي» بين الدور الأثرية المغلقة، بعد تجاربها في إخراج مسرحيات أخرى بالعامية لنعمان عاشور، وسعد الدين وهبة.

صاح في ملامح صوتها حب قديم:

. محمود عماد؟!!

ما اضطربت ابنة الثالثة والخمسين، وهي تقول في جرأة حسدت نفسها عليها:

. ظللتُ أنتظرك عشرة أعوام .. فلماذا تأخرت عشرين سنة؟!

قال ابن الخامسة والخمسين في هدوء:

. بل افترقنا ثلاثين!

تقدّمت إلى شباك التذاكر. دون أن تسأله عن مقصده . وحجزت تذكرتين للإسكندرية!

.. وعندما لاذت به، وتلاشت المسافة بينهما، وجلسا بجوار بعضهما في القطار المتجه إلى الإسكندرية، كان يريد أن يصيح:

. غبتُ عنكِ ثلاثين سنة .. لأن المسرحية الفصيحة . التي لم تخرجيها أبدا. ضاعت مني في سيارة أجرة ..

. ياه! .. أين؟

.. وبلع ريقه:

. في بور سعيد، حينما زرتُها في بداية الانفتاح السعيد!

أخلت للحيرة مكانا في ملامحها، فأضاف ضاحكا:

. لعلي كنتُ اريد أن اغيِّر نهاية مسرحية «الثائر» التي لم تعجبك.

.. لكن صوتها انبعث فجأة:

. ما كان يجب أن تبتعد عني .. انتظرتُك حتى مللتُ الانتظار!

تلاشت ملامح السعادة في وجهه، وترقرقت في عينيها دمعتان!

وقال كأنه يحدث نفسه:

. أضاعت مني بور سعيد «الثائر» إلى الأبد!!

❖❖❖

أخرجت ديوان شعر.

أخذت تقرأ قصيدة حزينة بصوت تمثيلي يبهره كما كان قديما!

تيقن أنها هي .. نادية حمدي!!

لم تشرق الشمس منذ الصباح.

أضاء برق مفاجئ . تكرر عدة مرات . الظلمة التي اكتنفت عربات القطار ساعة الغروب!

استرق نظرة إليها، ما بالها لم تشخ؟!

أخذ قلبه يدق، كما كان يدق كلما تذكرها..

أغمض عينيه، وتذكر رحلاتهما في قاهرة أواخر الستينيّات وأوائل السبعينيّات، من حدائق الدرّاسة إلى حدائق الأورمان، ذكرياتهما السعيدة في حديقة الحيوان، رحلاتهما للمسارح في مساءات القاهرة المضاءة بلون أزرق عقب هزيمة يونيو الحزين، مظاهرات الطلبة في نهايات عبد الناصر وبدايات السادات، فرحتهما بانتصارات أكتوبر و«سينا يا سينا باسم الله .. باسم الله»، مشاركتهما في انتفاضة الخبز (التي كان يسميها السادات انتفاضة الحرامية)، أغاني الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، الشاي الأخضر، الحسين، .. المطار: يودعها وهي مسافرة إلى فرنسا في ندوة عن التجريب المسرحي، وهي تُداعبه في إلقاء تمثيلي فاردة ذراعيها:

لكني مهما كنتُ أحبك أعشقُ فني أكثرَ منك

فوداعا يا ثغرا مهما افترّ لغيري ..

يذكرُ قبلاتي .. أو يتلو شعري

وسأسألُ نجمَ الغربة عنك

وسأسألُ ريحَ المرفأ عنك!

وهو يكملُ:

حتى إن عُدتِ وجدتِ شبابك في صدري[1]

الأتوبيس النهري، والسياحة الفقيرة . كما كانت تُسميها . إلى الأهرام، ومكتبة جامعة القاهرة، ومشاغبات الشحاذين لهما وهما يصعدان القلعة، وفرحتهما بليلة الرؤية، وليالي رمضان، وزياراتهما المتكررة لسور الأزبكية للتقليب في الكتب القديمة.

ها هو قد وجدها، ولن يدعها تُفلت منه!

...

غاب في عناق الماضي الذي كان وتذكر تفاصيله الصغيرة ..

---

[1] من قصيدة لمحمد الجيار .

أغمض عينيه ..
.. حين وقف القطار في محطة الرمل..
أغلقت «نادية حمدي» ديوان الشعر .. وضعته في حنو .
كأنه طفل صغير . في حقيبتها، وكانت فتاتان دون العشرين
على الرصيف في انتظارها.
عانقت الفتاتين.
قالت في همس لمحمود عماد:
. ابنتاي سما .. ورنا ..
وابتعدن.
أشار لسيارة أجرة ..
ووجد نفسه . ثانية . وحيدا في شقته الواسعة!..

الرياض 2002/9/7م

اصطياد الوهم

هاهي النجمة «ليلى زهدي» ..

رآها «صبري عثمان» وهي قادمة إلى مقهى «هارون الرشيد» الذي اعتادا ارتياده معا منذ عشر سنوات..

كان جالسا إلى مائدة وحيدة خارج المقهى.

الناس يمرّون من أمامه باتجاه واحد!..

أقبلت من بعيد .. من الاتجاه الآخر.

سقط وجهه على صدره.

حين دخلت المقهى، وتجاوزته.. ومضت .. إلى مائدة أخرى، ترك كوب الشاي الذي لم يشرب منه.

نهض وأخذ يلملم أوراقا، وذكرى غاضبة، وأعواما تركتها وراءها..

جلس إلى مائدتها.

فتحت حقيبتها، وأخرجت رواية ضخمة.

.. لما رأته لم تبتسم:

قالت غاضبة، وهي تحاول أن تجعل نبرات صوتها كالمعتادة:

- إنني لا أصدق! .. هل هذا صبري عثمان الذي أعرفه؟ (وبلعت ريقها) .. هل هذا صبري ابن الثالثة والستين الذي دخل السجن في عهدي الملك فاروق وعبد الناصر .. وهاهو السادات أخذه ستة عشر شهرا في أحداث خبز يناير 1977م؟

ضحك .. وكأن ضحكته تقول لها:

- لكمْ أنتِ غريرة أيتها النجمة الجميلة!! ..

لم تلتفت إليه.

أضاف في خجل:

- لا تتعجبي! .. فقد كتبتُ مسرحية «صلاح الدين يدخل القدس» وأرسلتُها إلى صحيفة «الكفاح» اللبنانية التي نشرتها، عقب زيارة السادات التاريخية للقدس (قالها ضاحكا) فطلبتني الرئاسة بعد أسبوع!

قالت ساخرة:

- قرأتُها، حمدا لله أن النساء لم يظهرن فيها! وأن الرجال - وحدهم - هم الذين يتحمّلون وزر "البطولة" فيها!

شد كرسيا، وجلس في مواجهتها:

- لا تكوني قاسية في أحكامك.

تعرّف عليها منذ عشرة أعوام في صالون صديقه الناقد المسرحي محيي الدين فوزي، أعجبته ثقافتها الضخمة - بجانب جمالها اللافت - وكان إذا قرأ فصلا من مخطوطاته المسرحية تُبدي إعجابها بكتاباته التي لم تأخذ حظها في العرض المسرحي والمتابعة النقدية .. عدّها من جمهوره.

وضحك:

- كتبتُ ثلاثين عاما ضد الحكومات، فما التفت لي أحد إلا السجانون! .. وكتبتُ مسرحية تاريخية تشير إلى اللحظة التي نعيشها، فاستدعتني الرئاسة، للتشاور في تقديمها على المسرح القومي وطبعها في كتاب.

ضحكت:

- هذا هو الثمن؟

. انا لم أمدح أحدا
. أنت تعرفني، لا اقول إلا ما أعتقده.
أضاف جادا:
. لقد استمتعتُ بكتابة كل فقرة من فقرات هذه المسرحية، وهذا يكفي.
ابتسمت ساخرة .. ولم تُعقب.
أضاف:
. الناس سئمت الحروب، وتريد أن تستمتع بالحياة.
قالت ساخرة:
. وهل تصدِّق . أيها الكاتب الكريم . أن السلام الذليل مع إسرائيل سيأتينا بالمنّ والسلوى كما يقول زعيمك؟
قال متراجعا:
. خفضي صوتك، اريدُ أن أعيش، وأن تُعرض مسرحيتي في المسرح القومي!
قالت، وهي تحمل حقيبتها، وتُغادر المكان، وعلى وجهها علامات القرف :
. إن سلامك هذا . كمسرحيتك . أسوأ مسرحية مونودراما لممثل واحد، هو أنت!
أضاف لنفسه بصوتٍ عالٍ سمعه جيرانه في المقهى، بعد أن خرجت:
. وماذا يعنيني رأيها؟ إنها لم تذق . على أي حال . مرارة السجون! .. ثم إن المسرحية ستُقدم على مسرح الدولة بعد شهر ..
لقد كتب أكثر من عشر مسرحيات لم تُعرض مسرحية منها.
وعرفه الناس سجينا أكثر مما عرفوه كاتب مسرح.
وهاهي مسرحيته التي كتبها عن «بطل تاريخي» بحث عن السلام من خلال الحرب، ستضعه في مصاف الكتاب الكبار.
هاهي ليلى زهدي تنضم إلى جوقة صديقه الناقد

الكبير محيي الدين فوزي، الذي ازورّ عنه أمس، وهو يقول في لهجة حقيرة وشتائم رخيصة:

. لم أعجب لتقديم مسرحيتك على المسرح القومي، من إخراج المخرج الكبير سالم النقاش، فالسلطة تكافئ أحبابها!!

.. ماذا فعلتم أيها الأوغاد لي ولمسرحي المخطوط على امتداد خمسة وعشرين عاما؟

وأنت أيها الناقد الكبير قرأت مسرحياتي ولم تكتب عنها كلمة واحدة، لأنها لم تُقدم للناس كما كنتَ تقول؟

...

انسحب إلى مائدته .. لا يود التفكير الآن؟ .. «ليلى» مزاجها غير رائق، وتتهمني بالخيانة! .. إنها تجعل المسرحية التي شارك فيها على الأقل عشرة أشخاص مسرحية ممثل واحد، وتقول في لغة باترة بصوت يشبه صوت سناء جميل، أو صوت عادل إمام في أدائهما المسرحي الفخيم:

« إنها أسوأ مسرحية مونودراما لممثل واحد!».

...

صفق «صبري عثمان» بشدة يطلبُ شايا سادة، متوسلا إلى النادل أن يُخفض صوتَ المذياع لأنه يريد أن يكتب الفصل الأول من مسرحيته الجديدة «لماذا يغضبون مني؟»..

داعبته فكرة شيطانية، فضحك:

. مسرحيتي الجديدة أبطالها نساء. تقوم حول صداقة شيطانية بين مخرجة سينمائية وامرأة أعمال. فهل يقدمها المسرح القومي (دون تدخل الرئاسة هذه المرة)؟، وهل تسنح الفرصة فتقوم ليلى زهدي ببطولتها؟!!

ديرب نجم 1983/3/3

اللهم أخزك يا شيطان

كان الموقف صعبا للغاية.

مشت سيارة «سمير» على غير هدى في شارع الشميسي القديم .. ما كان يريد غير أن ترضى عنه «صباح»، فلا تعود إلى البيت لتشكو إلى المهندس صالح والدكتورة سناء منه ..

وكأنه لا يعرف الطريق، سألها:

- هل نذهبُ من شارع الملك فهد أم من شارع التخصصي؟

قالت في غضبٍ ونفور:

- لا أدري! .. كل الطرق توصلنا إلى الحديقة ..

اهتز إطار مقود السيارة بين يديه ..

ضرب جبهته بيده، وكأنه يقول لنفسه: كيف أجهل طريقي وأنا الذي أعرف مدينة الرياض جيدا؟ .. أعرفها منطقة منطقة، وشارعا شارعا، بل أعرف أماكن فيها قد لا يعرفها أحدٌ من أبنائها؟!!

ألم أقم فيها منذ خمس عشرة سنة منذ تخرجي من هندسة الإسكندرية والمجيء إلى العمل بالمملكة وأنا في الثالثة والعشرين من العمر؟

وأجاب على نفسه بصوت مسموع، سمعته صباح:

- بلى!

...

قالت له ضرتها «الدكتورة سناء» قبيل العصر .. لقد

اكتشفتَ أن «صباح» تثق فيك (قالتها الخبيثة بلهجة كأنها تقول له «إنها تحبك»)، ولهذا فهي تُهاتفك دائما قبيل الفجر .. وتستشيرك فيما يجد من أمور!!

كيف عرفت وهي تقيم في شقة أخرى، تعلو شقة صباح، في العمارة نفسها؟!!

قال في لهجة غاضبة:

. ألستُ ابنَ خالتَها، وقبل ذلك صديق الأسرة؟

وأضاف في برود:

. ألا تطلبينني أنت أيضا شاكية لي من بعض الأمور التي تغضبك، ولا تعجبك منها ومن غيرها؟!

كاد يقول لها:

. ومن صديقي ورئيسي المهندس صالح أيضا!

ولكنه أمسك لسانه في آخر لحظة!

قالت الدكتورة سناء:

. ألم تعلم؟

. ماذا؟

. لقد قالت صباح لصالح أن سميرا لم يعد صديق الأسرة فقط، أو ابن خالتها فحسب، بل صار أخا وأبا لها في الرياض؛ تستشيره في أخص خصائصها! .. وستعمل في المستقبل ما يُشير عليها به!

ما الذي يجعل «صباح» تكلم زوجها في ذلك الأمر؟! وبهذه اللغة؟!!

هل في الأمر خطة ما . أو وقيعة ما . تُريدها «الدكتورة سناء»؟ أو تُدبِّر لها؟

.. هل تريد لهما السقوط معا .. لتنفرد بالمهندس صالح؟! وهل تريد أن تقول له إنني أصون عرضك، بينما من جاءت لك بالوريث . بعد الخامسة والخمسين . تتلاعب بك .. مع من؟ .. مع صديقك «سمير»، ابن خالتها، الذي أقنعك بالزواج الثاني لتُنجب الوريث، ورشحها لك؟!!

لقد قالت «الدكتورة سناء» لسمير حينما حضر:

ـ صباح في حالة سيئة اليوم، خذها فسّحها في إحدى الحدائق .. التي نذهب لها معا مساء كل خميس.

وظلت «الدكتورة سناء» تداعبه، وتضحك معه بصورة لم يعرفها فيها من قبل، بل أخذت «صالح الصغير» ابن صباح معها، وتركت «سمير» ينفرد بها، بعيدا عن مضايقة الطفل الذي اكتسب شغب أمه!!

وقالت:

ـ دع صالحا الصغير معنا، فصباح في حاجة لأن تستريح من مضايقاته أربع ساعات!

قال في نفسه:

ـ هل حددت لنا الخبيثة الساعات التي نقضيها معا؟!

اكتشف سمير ـ وصباح تجلس بجواره في سيّارته ـ أنه ينظر لابنة خالته باشتهاء، لم يلحظه في نفسه من قبل!

راقبها، وتأمّل كل جزء من أجزائها قبل أن تتحرّك السيارة.

هل وأد الإنسان في داخله، ولم يعد يتذكر الصداقة مع صالح زميله ورئيسه في العمل؟ بل ولا يتذكر خالته «زينب» التي تقول له كلما يُسافر إلى كفر الشيخ في إجازة:

ـ أنا مطمئنة على صباح، طالما أنت في الرياض.

ـ في عيني يا خالتي.

ـ هي أختك الصغيرة.

❖❖❖

.. رأى «سمير» أنه صار وغدا ـ بل وسافلا ـ بالفعل!!

وصلا إلى حديقة «العليا» ..

جلسا متجاورين على الأرض في المكان نفسِه الذي كان يجلس فيه، ومعهما «الدكتورة سناء» و«المهندس صالح» و«صالح الصغير» منذ أسبوع.

نظر إليها حينما أعطته قطعة من اللادن، ورآها تتشدّق بها، ولسان حالها الآن .. كما يصورها له خياله .. أنها امرأة ساقطة فعلا!!

هذه البنت التي أخذت دبلوم التجارة منذ خمس سنوات؛ ورشحها لرئيسه المهندس صالح، الذي كان قد اقترب من الثامنة والأربعين، حينما سأله المهندس صالح والدكتورة سناء عن بنت «غلبانة» و«على قد حالها» تأتي لهما بمولود أو مولودة!

رشحها لهما وهو يعرف أنها بنت جميلة، لكنها منطوية ومنكسرة، فأبوها المهندس الزراعي مشلول منذ عقد من الزمان، وأمها . لته . ناظرة مدرسة ابتدائية في كفر الشيخ، لم يُنجبا غيرها، وكانا يتمنيان أن تتعلم وتتخرّج من الجامعة، ولكن درجاتها في الشهادة الإعدادية وجهتها إلى مدرسة التجارة!.

لم يقل لهما أول الأمر أنها قريبته.

لكنهما . المهندس صالح والدكتورة سناء . كان قد عرفا أنها ابنة خالته قبل إتمام إجراءات الزواج؟

سأل سمير نفسه منذ عدة أيام:

ما الذي يجعل «صباح» الآن متمردة، وتُريد أن تجعل رأسها برأس الدكتورة سناء الأستاذة بطب الإسكندرية، والأستاذة الآن بجامعة الملك سعود بالرياض؟

حينما جاءت «صباح» إلى الرياض من أربعة أعوام ونصف رفضت الدكتورة سناء أن تُقيم معها «ضرتها» في شقة واحدة، في العمارة التي يُقيمان فيها في منتصف شارع «الخزان»، في الطابق الرابع. ووجد المهندس صالح . ويا لحسن الحظ . شقة في الطابق الثاني من العمارة نفسها .. فأقامت فيها الزوجة الشابة.

لم يُشعِر المهندس صالحٌ الدكتورة سناء أن زوجته الجديدة ضرة لها، بل أشعرها . دائما . أنها خادمتها، وأنها لا تُدانيها في المنزلة أو القدر، وأنه تزوّج منها لمجرد المجيء بالولد.

وجاء الولد بعد تسعة أشهر، واقترحت الدكتورة سناء أن يسمى باسم أبيه، فسَموه «صالحا».

داعبت فكرة شيطانية مخيلة سمير، وهو يجلس بجوار صباح: ماذا لو أخطأ . هو الذي لم يُخطئ من قبل، ولله الحمد . مع ابنة خالته صباح؟

فكر سمير فيما سيقوله الناس عنه إذا خان صديقه، وارتكب فعلا شائنا مع صباح . ابنة خالته، أو أخته الصغيرة! . أو ما يمكن أن يجرى له أو يُصيبه في الرياض، من العقاب الشرعي .. الموت رجما .. إذا شاع أمره معها، فأصيب بإحباط!! .. واستغفر الله العظيم من الشيطان الرجيم.

...

ربما ليثُبت لنفسه أنه مروض لنمرة شرسة، قال لها:

. ألاحظ مؤخرا أن وجهك مصفر دائما .. هل أنت متعبة يا صباح؟؟!

استمرّت في مضغ اللادن بصوت مسموع، ولم ترد، بل رفعت حاجبيها، تسأله أن يُعيد سؤاله!!

أضاف في غير اكتراث:

. أنت لم تعودي «صباح» ابنة خالتي التي عرفتها .. أو صباح التي كانت منذ خمسة أعوام حينما تزوجت المهندس «صالح رشاد»!!

.. قالت في ضجر:

. أنت لم تعرفني أبدا، ولا تحس بما أعانيه!

.. ابتسم:

. حينما رشحتك للمهندس صالح كنتِ أكثر جمالا وحيوية من الآن، كنتِ تُشبهين عارضات الأزياء! .. ما الذي جرى لك؟ .. ولماذا لا تبوحين لابن خالتك بهمومك وهواجسك؟!!

قالت:

. لم أحس أنني تزوّجت!

استفسر بهزة رأس، فقالت:

. حاولتُ طوال أربعة أعوام أن أثبت لنفسي أني مروضة جيدة للنمور .. أو للقرود .. مع صالح وسناء فلم أستطع!

قال وهو يزن كلماته جيدا، لأن «صباح» خفيفة، ولا يثق بها، فقد تنقل ما يقوله إلى المهندس والدكتورة:

. هما أليفان، وطيبان وأولاد حلال .. فلماذا تثيرين حفيظتهما عليك دائما؟!! .. هل تعلمين أن «الدكتورة سناء» هي التي أصرّت على أن يتزوّج صالح منك بعد أن جاءت ورأتك في كفر الشيخ، بعد ترشيحي لك؟!

ضحكت ضحكة صفراء:

. قديمة!!

أضاف في لهجته الودود التي يُتقنها:

. وهل تعرفين أيضا أنها تحب ابنك أكثر من حبك أنتِ له؟

قالت وهي تنظر للناحية الأخرى:

. قديمة!

وابتلعت ريقها، وأضافت وهي متوترة:

. هي تقول ذلك، ولكني لا أصدق!.

وارتفع صوتها:

. هل الأم المستعارة للطفل تحبه كالأم الحقيقية؟!!

....

قال وقد نفد صبره:

. وهل تُدركين أنها هي التي رجتني أن آتي بك لهذه الحديقة؟، وهي التي أقنعت «المهندس صالح» أنك في حاجة للفسحة والبُعد عن جوِّ البيت؟ .. بل أخذت ابنك معها، حتى تستمتعي ...

قاطعته، جادة، كأنها لا تسمع ما يقول:

. بم أستمتع؟ بهذا الحرِّ الذي يكاد يشوي وجهي في الحديقة؟!!

ومرّت بأصابعها على جبهتها، لتنزل قطرات من العرق.

ردّ عليها في برود:

. بل تستمتعين بهذه الفسحة، وبهذا الترويح!

قالت صارخة:

. ليس هذا ترويحا (وبلعت ريقها، وقالت بصوت متوتر بالغضب كأنها تُلقي قنبلة) أحس أنني على شفا حفرة؛ سأقع فيها!

ونظرت إلى الأرض، وهي تؤكد على الكلمات:

. .. سأسقط!

قال وهو يبتلع ريقه في صعوبة، حريصا على أن تبدوَ نبراته مستنكرة:

. ما الذي أوحى لك بهذا الشعور؟!!.

قالت، وهي لا تسمعه:

. لم أشعر أنني زوجة! .. لم يُشعرني زوجي أبدا أنني امرأته!

(وبكت):

. لم يعطني حقوقي كزوجة له!

ارتاع سمير، وهي تكلمه بهذا الأسلوب، فتأكد أن أعصابها تالفة!

وأضافت، لتخفف من هول ما أصاب سمير:

. بل أنا ابنة المهندس الزراعي المشلول، العاطل عن العمل، والأبلة .. ناظرة المدرسة الابتدائية .. أين أنا منهما؟ .. أنا خادمة عند المهندس صالح والدكتورة سناء! .. أتسمعني؟!! .. خادمة الدكتورة والمهندس، بل حتى ابني صار ابنهما، وأنا مربيته.. بل أنا أرخص قطعة أثاث في البيت..

انتفضت واقفة، وهي تقول آمرة:

. قم .. انكشفت اللعبة!

قال غير فاهم ما ترمي إليه:

. ماذا تقصدين؟

. صالح وسناء يتآمران على سقوطي، بإرسالك لي!!

.. ماذا تقول هذه المجنونة من ترهات؟ .. هل نسيت أنني في مقام أخيها الأكبر؟ وأني حاميها وحافظها بعد الله هنا؟

.. فاجأه الرد، فصمت.

أضافت:

. إنهما يعاملاني كأني خادمة، جئتُ لهما بالولد! .. بل إن سناء تعامل ابني الصغير كأنه ابنها هي، وتلومني على تقصيري معه وإهمالي في تغيير ملابسه .. وصالح ضربني أمس على وجهي أمام الضيوف (زميلات زوجته من جامعة الملك سعود، اللاتي كن في ضيافتها، وكنتُ أنا الخادمة التي اقدم لهن الأكل)، حينما فاض بي الكيل وأنا أراه يُعاملني باحتقار، فقلتُ له: إنني زوجتُك يا باشمهندس أيضا .. ولستَ خادمتك أنت وهي .. وأنتَ لستَ رجلا مادمت تُعاملني بهذه الطريقة!!

استغرب سمير ما يسمعه.. استدرك قائلا:

. الدكتورة سناء لم تقل لي شيئا عمّا حدث بالأمس!

كأنها ترفع راية التسليم، ولا تدري أي شيطان يعبث بها، أو يتكلم بصوتها .. قالت في صوت واهن، تخنقه العبرات:

. قلت لك يا ابن خالتي .. سأسقط بالتأكيد!! .. إن لم يكن اليوم فغدا.

ضجّت النيرانُ في أعماق «سمير»، وتذكر أنه بعيد عن زوجته منذ عام ونصف، وأنه يُعاني من الحرمان، ويتشوق لامرأته التي ظلت تطارده في أحلامه منذ شهرين نحو ثلاثة أسابيع متتالية، حتى أخذ تأشيرة السفر إلى مصر، وأنه سيُسافر بعد غد، ويمكث هناك شهرين.

.. واختفت صورتا زميله ورئيسه «المهندس صالح» و«الدكتورة سناء» من أمام عينيه .. وضحك، وهو يقوم، ويُشير لها بيده لتقف .. ليُنقذها من هذا الحر، وهو يقول لها:

. الحديقة ليست ملائمة لهذا الكلام.

....

نظر سمير إلى صباح فرآها ممشوقة القد، شاحبة الوجه، زرقاء العينين .. مظهرها ينم عن حزن كبير يحتويها، وشيطانه يُحدثه .. بأنه قد جاءت الفرصة الملائمة، وتخيّل أنه يضربها على صدرها الناهد، قائلا:

. إن كنتِ مصممة على السقوط، أليس من الأفضل أن تسقطي معي الآن؟! .. هيا إلى شقتي.

هل هي خيالات الوحدة؟!!

....

لم تجئ معه زوجته إلى الرياض إلا تسعة أشهر إلا قليلا.

وجد نفسه يستغفر الله العظيم، ويبتعد عن صباح قليلا، ويقول لها:

. صباح! .. لا بد أن تتكلمي .. نفسي عن نفسك .. كلمي المهندس والدكتورة في مشاكلك معهما، وهذه آخر مرة أستمع لك، أو أتدخّل. لأن ظروف عملي تقتضي مني أن أنتقل إلى فرع الشركة بالمدينة المنورة!!

وقال لها وكأنه والدها:

. حلي مشاكلك بنفسك ..

ودون أن يُفكر وجد نفسه يقول:

. هذه آخر مرة أراك فيها أنت، والدكتورة سناء.

وعندما وجدها تحدق في وجهه مستفهمة، وهما يخرجان من باب الحديقة أضاف:

. سأذهب بعد يومين إلى كفر الشيخ لرؤية الأسرة في إجازة تمتد شهرين، ولا أريد أن أغضب خالتي، بأن أقول لها إن ابنتها تُعاني .. أو غير موفقة مع زوجها بالرياض.

جَاهَدَ كيْ يبدو مبتسما، وهو يفتح باب السيارة، وقال وكأنه يحدث نفسه:

. هذه المرة لا بد أن تجيء زوجتي معي إلى المدينة المنورة؛ فقد قالت لي من قبل إنها ستجيء معي للإقامة في المملكة إذا عملت في المدينة أو مكة.

الرياض 2002/1/9م

شرخ آخر فى المرآة

وقفت «نورا» أمام المرآة ذاهلة.

ما هذه التجاعيد التي بدأت تغزو وجه ابنة الرابعة والأربعين؟ وما هذه الشعرات البيض التي تتسلل وسط شعرها الناعم الكستنائي الطويل الذي ورثته عن أمها رحمها الله.

عاشت حياتها تجري .. حصلت في الثالثة والعشرين على بكالوريوس الصيدلة، وكانت الثالثة على الدفعة الأولى من كلية الصيدلة بجامعة الزقازيق، ولكنها رفضت التعيين مُعيدة في الجامعة ليفتح لها والدها صيدلية، ولتتزوّج ابن عمها الذي يصغرُها بعامين، حتى لا تضيع ثروة والدها . الذي لم يُنجب غيرها . بعيدا.

هاهو زوجها . الطبيب البيطري . قد مات منذ عام ولم يُعقب، وهاهو أكثر من طبيب وصيدلي يعرض عليها الزواج، وحلمُ مُداعبة طفل صغير تنجبهُ لم يمت بعد.

لكن المشكلة أن كل من تقدّم لها متزوج .. وله أبناء!

لا بأس ..!

أعادت التحديق في المرآة وجدت شرخا كبيرا فيها، وصورة زوجها الرّاحل فوق السرير . من خلفها . تعبس في شحوب في الزاوية البعيدة قبل أن تغيم شيئا فشيئا.

أيُطاردُها ميتا أيضا؟

اتسعت ابتسامتها وهي تتحسس استداراتها وانحناءاتها!!

الرياض 2003/5/17م

سره الباتع

❖المولد .. وما أدراك ما المولد؟!

«كفر الشيخ عمران» إحدى قرى مُحافظة الشرقية.

قرية صغيرة من خمسة آلاف قرية مصرية .. تضم نحو ستة آلاف نسمة.

عندما عدتُ من القاهرة لزيارتها قال لي ابن خالتي محمد الشامخ، شيخ البلد، والمغرم بالطرب، والأذكار، وليالي غناء أم كلثوم:

. الله يخرب بيوتهم الذين عملوها.

. ماذا عملوا؟

. قالوا إن مولد الشيخ عمران .. لا يجب أن يُقام هذا العام منعا للغلط!، والذي يريد أن يقيم مولدا .. يعمل له مولدا في بيته!!

ورجعتُ إلى الوراء عشرين عاما من حياتي الماضية .. كنا صغارا .. وكان مولد الشيخ عمران كل شيء بالنسبة لنا .. فالقروش القليلة التي نأخذها من الآباء والأقارب كمصروف، والملابس الجديدة الزاهية، والمراجيح، والبنات

الحلوة، وعلب البخت، والعصير .. والسوبيا .. وزملاؤنا الذين يجيئون لزيارتنا من إكراش .. وديرب البلد .. وصفط .. هذا ما نفهمه من العيد الصغير (عيد الفطر) .. والعيد الكبير (عيد الأضحى).

وأسمع من حولي الأصوات من جديد تتناقش:

. والله .. الشيخ عمران ما يتنازل عن حقه!

وأرد في انفعال:

. أستغفر الله العظيم.

ويسألني محمد الشامخ:

. لماذا تستغفر؟

. لأنه ميت .. لا يستطيع أن ينفع نفسه، فكيف يتنازل أو لا يتنازل؟

.. ويصير عليّ الشامخ، ولا يُجاريني فيما يتصوّر من غضبي:

. ألا تذكر أنهم من سنتين فكروا في إلغاء "المولد" .. ولكن، عملها الشيخ عمران .. وفِطست لهم بقرتان!

. لا يا فالح، ... ثلاث بقرات لعلي المسكين، لكن كانت بفعل فاعل.. واحد أنت تعرفه وضع لها السم في البرسيم، ومحاضر الشرطة في ديرب نجم تشهد على ذلك!

وأضفتُ ضاحكا:

. وشيخ البلد جدير أن يكون أول من يعرف ذلك.

فابتسم، وصمت مُرغما!!

❖سره الباتع!:

«الشيخ عمران» . كما يعتقد العامة . شيخ له سره الباتع في الكفر الذي يحمل اسمه، بل في مركز ديرب نجم، بل في محافظة الشرقية! وله زواره ومريدوه .. في الشرقية كلها. وفي العيدين يأتي عشرات الآلاف لزيارته!

ومما يروونه:

قال لي شيخٌ معمم في الزقازيق إنه دليل الحجاج في الحجاز، ومن يتوه عن ركبه وجماعته يجده راكبا فرسا

أبلق (لم يقل لي ما معنى «أبلق»؟) يدله على جماعته!

وقالت لي حاجة في الثمانين من عمرها (أأعترف وأقول لكم إنها عمّتي؟) إنها تاهت أثناء حجها عن الشارع الذي كان يقيم فيه الحجاج المصريون في مكة، فصرخت: يا دليل التائه يا شيخ عمران!

وإذا بها تُبصر شيخا ذا لحية بيضاء تنشق عنه الأرض، ويمشي أمامها حتى يوصلها إلى سكن الحجاج المصريين، دون أن يحدثها، وحينما حاولت أن تشكره . بعد وصولها . لم تجده!!

جملة معترضة:

يقال إنه من قيمة 400 أو 500 سنة كان الشيخ عمران سلطانا (أو ابن سلطان) على الحجاز، وأدركته الجذبة، فمشى ومن حوله عسكره، إلى بادية الشام، فغزة هاشم، فبلبيس، فهذه الأرض التي عُرفت بعد مجيئه بكفر الشيخ عمران، ويقال إنه كان يقدم بيديه الطعام لجنده وزوّاره، وكان الناس يفتقدونه . في حياته . في موسم الحج، والإشارة واضحة! وقد استقر من حوله الدراويش والأتباع، وكان رجلا صالحا له زوّاره ومريدوه، وحينما مات بنوا له مقاما.

(شي الله يا شيخ عمران!)

في صباح العيد:

في صباح العيد، وبعد خروجنا من صلاة العيد، همس في أذني محمد الشامخ: إن الشيخ عمران غضبان على البلد، وأنه رفض أن يفتح بابه ليلة العيد!

نعرف جميعا أن بعض الكهول من أبناء القرية يحتفلون في ليلة العيدين بحلقة ذكر داخل مقام الشيخ الذي يتوسّط مقابر القرية، ويُضيئون الكلوبات ويتمايلون يمنة ويسرة، وينشدهم الشيخ عبد الهادي حدّاد قصائد الوجد والهيام والحب الإلهي، ويظلون كذلك، يغنون ويتمايلون

حتى يخرجوا لصلاة الفجر، ثم يؤدون صلاة العيد في المسجد، ويعودون لبيوتهم.

ولما قال لي محمد الشامخ إنه رفض أن يفتح بابه، ضحكت!

وقلتُ له:

- الشيخ محمد أبو فاضل معه مفتاح للمقام، أحضره لي وأنا أفتحه الآن!

فاستعاذ بالله، وحذرني من غضبته!!

وأضاف الشامخ مكتئبا:

- إن الحضرة وحلقات الذكر التي تقام ليلة العيد لم تقم، وهذا فأل سيئ، ونذير شؤم على البلد، بل المنطقة جميعا!

وتفل، مستعيذا بالله، ثم أضاف في كآبة بادية:

- من عصر أمس لم يفتحوا باب المقام.

قلتُ ساخرا:

- الجماعة الذين يأخذون النذور فعلوها!

سأل مستنكرا:

- ماذا فعلوا؟

- أعطوكم مفتاحا غير مفتاح المقام!

- وما مصلحتهم في ذلك؟

- ليُشيعوا القلق في الناس، فتكون وسيلة ضغط، لإقامة «المولد».

ولم يصدق محمد الشامخ، رغم أني طلبتُ منه أن يأتي بنسخة المفتاح التي عند محمد أبي فاضل، وأنا أفتح له المقام، وقال وهو يهز كتفيه:

- وما الفائدة إذا كانت ليلة العيد قد مرّت؟

قلتُ له:

- وماذا فعلت في ليلة العيد؟

ضحك وقال:

- لم يأتني النوم، فظللتُ أديرُ في رأسي أسطوانة أم

كلثوم «الليلة عيد .. ع الدنيا سعيد»!!

أصل الحكاية:

منذ شهرين وعشرة أيام، (أي في اليوم الثاني من عيد الفطر الماضي) وأثناء «زفة الشيخ عمران» حدث قتال بين عائلتي جمال ومحروس بالنبابيت والطوب، وأصيب رجال .. وأجهضت نسوة، وكانت القرية في موقف عصيب؛ فالكل يخشى أن يخرج من بيته بعد المغرب.

وتصالحت العائلتان المتنازعتان.

ولكن أحد «الخبّاصين» قال إن عائلة محروس . وهي عائلة العمدة . ملأت بيتا إلى سقفه بالشوم والنبابيت، وأنها ستستعمل بندقية أحد أبنائها، العامل بالشرطة بمركز ديرب نجم (ليس من أبناء قريتنا ضباط والحمد لله، وإلا لصارت البندقية مدفعا في حكاياتهم)، وتستمر الحكاية، لتقول إن العمدة درءا للشر، اتفق مع الشيخ محمد الشامخ (وهو شيخ البلد، ومن عائلتنا، عائلة جمال) طلب قوة من شرطة المركز (مركز ديرب نجم) يوم الوقفة، ترد الباعة الذين يجيئون لساحة الشيخ عمران، وطبع منشورا في مطبعة الاستقلال بالمنصورة في ثلاثة آلاف نسخة، وزع على كل قرية من قرى المركز منه مائة نسخة، يقول فيه:

«إعلان هام»

لن يقام مولد أبو شبانة هذا العام نظرا للظروف التي تمر بها الأمة، ومشاركة منا لجيشنا وقواتنا المسلحة، واستجابة لصوت الزعيم الملهَم جمال عبد الناصر، حتى لا يعلو صوت على صوت المعركة، وكل عام وأنتم بخير»».

لكن بعض الخبثاء علقوا:

. المفروض أن هذا الإعلان . أو هذا «البيان» . كان منذ عامين ونصف، وتوقيته الصحيح يونيو 1967م لا فبراير 1970م!!

ثاني أيام العيد:

شوارع البلد خالية في «يوم الزفة»، كان يأتي إلى القرية في هذا اليوم عشرات الآلاف، فتضيق بهم شوارع القرية، والطرق المؤدية إليها!!

هاأنذا أسافر إلى القاهرة، في اليوم الثاني من أيام العيد، وكان لا يتحرّك من القرية شخص قبل مساء اليوم الثالث، بعد انتهاء العيد.

وأنا أركب الحافلة عائدا إلى القاهرة من ديرب نجم، أسرّ لي أحد الركاب:

ـ الشيخ عمران أخذ بثأره، نفقت جاموسة شيخ الحفراء الذي كان يمنع البائعين الفقراء يوم الوقفة من المجيء للمولد لبيع أشيائهم والارتزاق منها.

ويرد «العمدة» الذي كان يجلس أمامنا، وبجواره ابنته:

ـ لا تصدقهم يا أستاذ خالد، الجاموسة مريضة منذ شهر، وذبحها الشيخ سلطان اليوم، بعد أن استشار الطبيب البيطري الذي كان يُعالجها، وتأكد منه أن لحمها غير ضار وغير معدٍ!

المساء 1970/4/17م.

*نشرت هذه القصة بعنوان «شي الله يا أبو شبانة..!».

أحزان نادية

جلست «نادية» في . أول أيام إجازة نصف العام . في النادي، أمام المنضدة التي اعتادت أن تجلس مع محمود عليها!

النادي شبه مهجور .. وأوراق الأشجار متساقطة بكثرة فوق الحشائش التي كانت تبدو دائما زاهية لامعة.

ما كانت تريد غير أن تسترجع لحظات من الزمن الجميل .. من خمسة عشر عاما ضيعها محمود في نزوته، وسرق منها أحلامها، وعمرها الذي لن يعود.

أين محمود الآن؟!

إنني أذكره دائما، وكأن حياتي تعلقت به رغم ما فعله معي!

رأت النادل من بعيد، عيناه كرصاصة نارية تخترق تجاويف صدرها .. كأنه يسألها لماذا أنت وحيدة .. ولماذا لا أرى الدكتور محمودا معك تملآن المكان حياة وضحكا؟!!

كم كانت تضيق صدرا من مطاردات النادل لهما في خلوتهما بالنادي .. وسؤاله المتكرر:

. ماذا تشربان؟

.. لماذا يبتسم الآن؟

هل يريد أن يقول إن محمودا يأتي هنا كثيرا مع لعبته الصغيرة ناهد؟!

. أريد شايا بالحليب.

إنني لم أجيء هنا من أول الصيف الماضي.

تجنبتُ الأماكن التي كنا نغشاها معا.

هل رأى «محمودا» مع «ناهد» تلميذته الساقطة التي تزوجها بعد أن صارت حكايتهما في النادي والجامعة على كل لسان .. وتزوج ابن الخامسة والخمسين من لعوب في الرابعة والعشرين؟!!

استدار النادل ليُصافح فتاة تُشبه ناهد .. تميل إلى القصر .. والنحافة .. ما الذي أعجبه فيها؟!!

لاحظت «نادية» ظهر شخص أمام باب النادي في الزاوية البعيدة .. ظهر كظهر محمود .. لبست النظارة الطبية، فلم تر إلا ظهره!

كنا زميلين في قسم علم النفس بكلية المعلمين (قبل أن يتحول اسمها إلى كلية التربية)، وكنتُ الأولى دائما، وكان ينافسني على التفوق، لكنه كان يأتي بعدي دائما.

حينما تزوجنا، ونحن معيدان صغيران بالكلية، كان الجميع يحسدوننا على الحب والتفاهم اللذين يظلاننا .. أين ذهب ذلك الحب؟ وأين اختفى ذلك التفاهم؟

استدارت الفتاة التي كانت مع النادل لتلحق به، وتتعلق في ذراعه .. وتتمايل في مشيتها كتمايل عارضات الأزياء!

ما الذي يجعل الأستاذ الجامعي يقع في حب تلك «المهرجة المسخوطة»؟!

رنّ في أذنيها صوتُ والدتها الواهن:

. أنتِ يا أستاذة علم النفس .. فشلتِ في معرفة نفسية زوجتك .. وفشلتِ في التعامل معه بعد الخمسين؟

قالت في نبرات غاضبة:

ـ لا تحمليني وزر ما حدث.

ـ لماذا تغضبين إذا قلنا الحقيقة؟ .. أنتِ لم تُحافظي على طائرك.

أجابت صارخة:

ـ حاولتُ .. فلم أوفق!

كان جو يناير شديد البرودة، وكان هناك رذاذ خفيف!

قالت خالتي سامية ذات يوم:

ـ كان المفروض أن يكون زوجك أكبر منك في السن بخمسة أعوام .. لا زميلك!

.. أبعد الخمسين تقولين ذلك يا خالتي؟! .. إنها تكرر أقوال أمي! .. وإنني لم أشعر بحكاية السن هذه أبدا!!

تركت «نادية» نقود المشروب على المنضدة، وأسرعت تُعلق حقيبتها في كتفها.

كادت تقع على الأرض في أولى خطواتها المتسارعة للحاق بمحمود.

لاحظت أنها ـ منذ أسبوعين ـ تعرج عرجا خفيفا، لا تدرى سببه!، ربما أصابها «النقرس» اللعين، ستذهب إلى طبيبها هذا المساء لتستشيره.

نظرة حزينة تبدو في عينيها وهي تُغادر النادي .. لقد جاءت لتستعيد شيئا من الماضي .. فطاردها ..

تدحرجت خطواتها على الطريق .. تريد أن تراه .. هل هو محمود؟!!

وقف الرجل والمرأة أمام بائع جرائد.

هل هما محمود وناهد؟

لاحظت بل تأكدت انه هو .. تأكدت من ظهره!

أصبح الشيب يغزو شعره.

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

كنتُ أصبغ شعره كل أسبوع، بل إني صبغتُ شعره يوم زفافه على ناهد.

. أنت تحبينني بلا شك يا نادية!
. اسأل قلبك.
. لماذا إذن تُطاردينى في الجامعة والنادي وبيوت الأصدقاء؟
. أريد أن أحافظ على صورتك كأستاذ جامعي!
. أنتِ أيضا أستاذة جامعية؟
. هل تلومني على شدة حبي لك، ومحاولتي أن أحافظ على صورتك من عبث هذه العابثة؟
. أنتِ يا هانم .. كسرتِ الصورة! وزعمتِ أني أحب تلك التلميذة الصغيرة.
. ليست صغيرة، بل في الرابعة والعشرين.
في استنكار:
. وعرفتِ عمرها؟
مالت عليه لتقبله، وتخفف من حدة الحوار:
. أحبك كأنك طفلي!
وكأنه يريد أن ينهي الكلام، وهو يبتعد عن فمها:
. نحن مساء الخميس .. ألم تنسي شيئا؟!!
. نسيت ..
وكأنها تتذكر:
. هذا يوم الزيارة الأسبوعي .. نزور والدتك ثم نذهب لزيارة والدتي!
قال وهو يعاود مرحه القديم:
. لا والدتي .. ولا والدتك اليوم!
وهي مهمومة، وتُجاهد أن تبتسم؟:
. هل سنقضي اليوم في البيت؟
. لا ..
. ماذا إذن؟
قال والدهشة تملأ عينيها:
. هذا يوم صبغ الشعر الأسبوعي! .. بعدها سأذهب لزيارة صديق عائد من مؤتمر علمي في فرنسا .. وسأجد

عنده بعض الأصدقاء، ونسهر معا.

...

وصبغت شعره، وذهبت لأمها وعادت لتجد معه ناهد، في شقتها هي التي أثثتها من رحلتها إلى الكويت .. وحينما ثارت عليه وصفعته على وجهه أخبرها أنها زوجته من شهور!

ضربت نادية الأرض برجليها، وملأت الدنيا صراخا. ركبت سيارتها وذهبت إلى أمها التي كانت معها منذ ساعة. هجرت عش الزوجية، وعولجت شهورا طوالا من الصدمة في مصحة نفسية، بعد أن طلقها، وأقام في الشقة التي ملأتها بالأثاث من إعارتها أستاذة لعلم النفس في جامعة الكويت، وحرمها من مكتبتها التي كونتها كتابا كتابا ومجلدا مجلدا.

كادت تشده من البذلة التي أتت له بها من إعارتها . وما زال يرتديها!! . وتقول له:

. اخلع بذلتي يا عرة الرجال!!

ولكنها وجدت ساقيها تتعثران، وتسقط على الأرض على بُعد خطوات قليلة من بائع الجرائد، وينظر محمود للجسد الذي ارتطم بالأرض في تجاهل تام، وكأنه لا يعرف مطلقته .. هذه المرأة . التي عاش معها خمسة عشر عاما . من قبل!!

الرياض 2002/1/15م

عكرمة .. يرفع السلاح

توطئة:

قال المرجفون في المدينة:

إن كل مراكبي قد غرقت

وأن أيامي القادمة للنسيان

وخضرة حديقتي للذبول، فالموت!

فهل صدَّقتهم؟!!

1

ألفت رؤية الغريب أمام مدخل البيت يُجالس الحارس .. فاستسلمت أغصان فؤادٍ مسربل بقصائد الضياع، وكانت روحي تنزف الحروف .. متقطعة، وأصدقائي يقولون ثرثرة عمياء، بلا بصيص ضوء.

قلتُ لنفسي أول الأمر «يا عكرمة! أنت لا تُبصر أكثر مما يُبصرون، أنت لك عينان كليلتان، وهم لهم ملايين الأعين»!

تدثرتُ بالصمتِ، وأنا أرى أولاد القردة «يرسمُون» على اغلفة كتب الفتوح عار حاضرنا الذي نرسمه ملونا، ويأخذ . عندنا، يا للفجيعة! . شكل النبيذ! .. في أنهار تجري بفخرنا الذي تُسطره القصائد العصماء! .. بينما يرسمونه متوجا بالعار، والخزي والسقوط!
لماذا يهلل الخائفون المذعورون لانتصار البغال المرتجى؟!، ويغنون لأعراس النشوة القادمة، وهم يقدمون لحم أمهاتهم وبناتهم .. للغريب، ويتلون على مسامعه الصماء قصائدهم الميتة، عند مفترق الطرق ..!.

2

كان «مطيع» الحارسُ يهذي بكلام . لا يُصدقه أحد . عن فتوحات الغريب (الذي عرفتُ . فيما بعد . أن سمه «بنيامين») مع نسائنا!!.
وكان «مطيع» يُقارضه على حبل الحوار . بلا حياءٍ . ثناءً، ونفاقا رخيصا.

...

رأيتُ . فيما يرى الرائي . الحارس مؤرجحا في مشنقة ، (كتلك المشانق التي نصبها الغريب لأهالينا في دنشواي منذ مائة سنة) وألفاظه الغامضة المنافقة بجمل تعيسة تعتمل في لسانه .. وللغريب عار الهزيمة يُطارده، يأخذ شكل القتل في وسط النهار. هل أجاهر وأقول ما رأيتُ؟!.
كان الغريب يحملُ صحيفة سوداء كاذبة، معانقا سلاحه، يحتفي بنصره القادم / المحتمل، ويقبل نسره الظافر، ويُعطي لنهاية النهار فرحة شهوة المنتصر، ويترك لنا تعاسة الظلام المواتي الذي يلوح في الأفق!

...

3

أدار الفتي الغريبُ وجهه غاضبا حينما رآني، لماذا يغضبُ وأنا لا أعرفه، وأنا . أيضا . صاحبُ العمارة التي يجلس مع الحارس على «دكة» امامها، ويمُدّ ساقيه في وجهي؟!!.

قالت الخيول الصافنة متسائلة:

. هل تظنّ أني أحببتُ البغل؟

مطيع (الحارس) مستبشعا الكلمة، يضع يده على فمها، ويصرخ في جنون:

. لماذا تصرخين أيتها الصافنات؟ إنه بجواري على دكة المدخل (في صوت هامس) يكاد يسمع كلامنا؟

قالت . وهي لا تأبه بشيء . متأففة:

. إنكما عند الجميع كشخص واحد .. مطيع . بنيامين.

(وهو يحدق في جنون وتتسع حدقتا عينيه، ويتهاوى في قاع الجنون والحضيض) .. كان يتساءل عن معنى ما قالت:

. إن البغال لا تتزوّج الصافنات!!

(وتضحك الخيول ضحكا هستيريا) مُضيفة:

ولأن الحارس استطاع أن يُبصر أخيرا، لم تتزوّج البغالُ الخيول، ولم تنعمْ بعاره الجميل!

4

كانت الصافنات تُغني في المساء الأخير، أغنيتها الأثيرة، التي رددتها كثيرا في الأيام الأخيرة، منادية من لا أبصره:

أيها المستجير من الرمضاءِ بالنار ..

لا تترك السيف

لا تخلع الدرع

أنت في قيامتك الكبرى

رايتك مرفوعة للريح
والغريب مدجج بالخراب
وخطواتك لن تقتلعها الريح
لك موتُ يجدرُ بشهيد
وللغريب حياة مجللة بالعار
لك أن تعيش طويلاً ..
أنت والنسور في الأعالي

كان الطين يرسخ شهادته، في السهول الخضراء، والأرض توثّقها في الجذور .. فلن تقتلع الريح خطوتك .. يا عكرمة ..

يا ابن الأرض، ها هي الريح بجانبك .. تدفق الدماء في الجسد، وتزهو الريح لأنك نبتها الذي لم ينحن، وتقول: ستقتلع وحشَ الغابة الذي يهددك بالمحو، ستنتصر على الغريب، فلا تخف .. وهاهي الخيول تقول: إنها أحبتك منذُ رآتك .. تُحاول أن تضمك لصدرها بقوة، بعد أن كانت قد ابتعدت زمنا ..

تقول: هل يصعد قاربك يا عكرمة .. فوق بحار الشوق المشتاقة؟!

...

لم تقر أن كل مراكبك قد غرقت، كما يقول المرجفون في المدينة!

الرياض 2003/3/11م

الحافلة التى لم أحلم بها

إذا كنت من سكان شارع خيرت أو أحد الشوارع القريبة من ميدان لاظوغلي، وأردت أن تذهب لجامعة القاهرة . مثلي . فما عليك إلا أن تركب الحافلة ذات الرقم 20 أو عشرين بشرطة، ويا ويلك إن كنت!!

فهذه الحافلة نادرا ما تأتي، وإذا جاءت فزحمة لا تُطاق!!

ولا تقل لي إن كل الحافلات في مدينة القاهرة هكذا، فحافلات هذا الرقم من نوع فريد!!

وسأروي لك ما حدث لي معها خلال أقل من أربع وعشرين ساعة!

أمس . الثلاثاء . كان اليوم الدراسي الأخير في هذا العام الجامعي (كما كنا نعرف منذ أسبوع، ولكني اكتشفتُ لاحقا أنه قبل الأخير) .. انتهت المحاضرات في الثانية عشرة، صليت الظهر في مسجد الكلية الصغير (..وكان المصلون أقل من عشرة طلاب، في كلية فيها أربعة آلاف طالب! ما علينا!)، ثم انتظرت صاحب البريد عبد الحميد . والسجعة غير

مقصودة . حتى يعود من مكتب بريد الجيزة بخطاباته، فوجدتُ خطابا من والدي . الذي يكتب بصعوبة ولا يستطيع أحد غيري أن يقرأ كتابته (أو بالأحرى «أن يفك خطه») . ومع الخطاب حوالة بريدية باثني عشر جنيها «تُصرف من بريد الجيزة بميدان الجيزة» .. قلتُ: أصرفها غدا.

وأبي . عادة . يرسل لي في كل شهر عشرة جنيهات، لكنه في هذه المرة أرسل مبلغا أكبر، رغم أننا سنمضي ثلاثة أسابيع في الامتحانات وليس شهرا، لعله "يرشوني" .. حتى أذاكر، ولا أذهب لدور السينما في هذا الشهر العصيب، الذي يُتوِّج تعب الأسرة معي في عام!

في طريق الخروج . وقرب باب الجامعة الذي يُفضي إلى الشارع . قابلتني زميلتي «أنوار»، وهي قرويّة من إحدى قرى طنطا، وتُسافر بالقطار يوميا .. ولم تغب أبدا عن أية مُحاضرة، قالت لي بصوت عال:

. محمود، اليوم ليس الأخير، تعال للقاعة 12 غدا.

. ماذا تقصدين؟

. الدكتور عبد العزيز الأهواني عاد من الخارج، ويريد أن يلتقي بالطلاب غدا .. من التاسعة إلى الحادية عشرة .. يريد أن يُدلي لنا ببعض الملاحظات قبل الامتحان!

كان الدكتور قد غاب عن محاضراته ثلاثة أشهر، وعلمنا أنه في أسبانيا، وحمدنا الله أن الدروس توقفت، وسنمتحن في الصفحات القليلة التي درسها لنا في أربعة شهور قبل سفره.

كدتُ أرفع صوتي معبرا عن سخطي، ولكني تذكرتُ أن أبي أرسل لي حوالة بريدية، وبدلا من المجيء من لاظوغلي إلى الجيزة حيثُ مكتب البريد في الرابعة مساء .. آتي في الغد لحضور المحاضرة وصرف الحوالة، وأضرب عصفورين (أو أحقق طلبين) بمشوار واحد!!.

رسمتُ ابتسامة باهتة على وجهي، ووجدتني أقول:

. على خير إن شاء الله، شكرا يا أنوار.

ووقفتُ أمام الجامعة . في ظلال أشجارها . من الثانية بعد الظهر حتى الثالثة إلا ربعا أنتظر الحافلة الموعودة، حتى جاءت تتمخطر في خيلاء كعروس ليلة زفافها .. ولم أستطع أن أركب .. لسبب بسيط .. هو أن على الباب أكثر من عشرين شخصا متشعبطا، وكان عليّ أن أركب الحافلة ذات الرقم 12 بشرطة للسيدة زينب التي تفوت بكثرة، وأنزل عند دار الهلال بشارع المبتديان . وأمشي إلى لاظوغلي! فقد كففت عن الشعبطة على الباب منذ أن وقعتُ . منذ شهرين . أثناء رجة عنيفة في الحافلة 20 دفعت بي من الباب إلى أرض الشارع، وأشك الآن في أن ضلوعي سليمة! ووقعتُ أمام ترام .. لولا أن سائقه ابن حلال، ولولا أن لي بقية من عمر، لكنتُ الآن في عالم آخر!

في صباح اليوم (الأربعاء) .. انتظرتُ الحافلة أكثر من ساعة، ثم جاءت إلى المحطة محمّلة، فهي تُعبئ من أمام محطة دار الهلال .. والسنية .. والمالية .. ثم تجيء ولا مكان فيها لقادم جديد!

.. وكان عليّ أن أركب الحافلة رغم كل شيء.

قلتُ وأنا على الباب للشاب الذي يسد الطريق بمنكبيه:

. لو سمحت يا أستاذ!

قال في لهجة اجتهد أن تكون رادعة لأمثالي من الركاب، الذين يريدون ركوب الحافلة رغم الزحام البادي:

. ليس في الداخل مكان .. أنت ترى أمامي سيدات .. يعني لا أقدر أن أتحرّك!

دفعني شاب يلبس بنطلونا أزرق، كان راكبا على الباب، ولكنه نزل، وأتاح لي أن أركب، ثم تشعبط على الباب مثلي:

. يا أستاذ أنت مؤدب قوي .. تقول له لو سمحت!!

وأضاف في صوت آمِر:

. زاحِمْ وادخلْ .. لكيْ أدخل وراءك!
ولم أجد بدا من المزاحمة والدخول.
جهاز الاستقبال يلتقط مُناوشات من حولي؛ المرأة البدينة تقول للشاب الذي كان يسد الباب بذراعيه:
. لوْ سمحت تأخّر قليلا .. أنت تلتصق بي!
صوت رجل عجوز في السبعين:
. يا خبر .. ضلوعي تكسّرت!
. متأسف يا بابا.
. .. كسرت وسطي بذراعك
. أبوس رأسك يا عمي
العجوز في قرف:
. لا أريد أن تبوسها .. ولكن تأخّر قليلا لو سمحت .. حتى أستطيع أن أتنفس!
يُبعد الشاب رأسه إلى جهة أخرى، في قرف:
. إيه الحكاية؟! .. ما قلت لك آسف.
زميله الشاب يستظرف:
. لا يا سيدي لم نصطلح .. لازم تبوس رأسه!
ويقهقه:
. الأتوبيس بطيء .. ماشي كالسلحفاة.
المنيرة .. المنيل .. كوبري الجامعة.
كان عليّ أن أقترب من الباب، ولا بد أن أستسمح الشاب القريب من الباب مرة ثانية.
.. وحاولت أن أخترق الكتلة البشرية الصلبة.
العجوز لوى شدقيه، وسقطت نظارته فوق أنفه، لكي تتسع حدقتاه وينظر لي من فوق النظارة:
. تفضّل يا سيدي المحترم.
ولا يتحرك خطوة واحدة!!
ويدفعني قاطع التذاكر بشدة:
. إلى الباب يا سيد .. حتى لا تعطلنا ..
وفي غناء قبيح:

. لو سمحت .. انزل بسرعة!
اكتشفتُ أن النثر من الممكن تلحينه وغناؤه، وأدركتُ عبقرية أولاد سيد درويش وأحفاده!
دفعني الشاب . والحافلة مازالت مندفعة . دفعة كادت تودي بحياتي، وحياة أربعة على السلم.
الأورمان..
وأنزل قبل محطة الجامعة بمحطة؛ ففي مرات كثيرة سابقة كنتُ لا أتمكن من النزول إلا بعد محطتين أو ثلاث محطات من محطة الجامعة.
حمدتُ الله لأني نزلتُ كامل الأعضاء، ولم أفقد جزءا من أجزاء جسمي في موقعة النزول!
الساعة التاسعة إلا دقيقتين .. عليّ أن أسرع الخطى حتى لا تفوتني المحاضرة الطارئة عن الأدب الأندلسي، فهي محاضرة مهمة، وتخص الامتحانات!
شيء خطير أوقفني عن الجري ..
.. لقد اكتشفتُ أنني قد سُرقت!!
سُرقت «محفظتي» . يا أولاد الحلال! . .
سُرقت المحفظة التي أضعها في الجيب الخلفي من البنطلون، والتي فيها بعض أوراقي (فيها مشروع قصة لم تتم بعد!)، وفيها: نقودي، وبطاقتي الشخصية، والحوالة البريدية التي أرسلها لي والدي بمصاريف الشهر الأخير، شهر الامتحانات !
تذكرت الفتي الواقف على الباب، الذي كان يدفع الجميع بمنكبيه وساعديه، وزميله صاحب البنطلون الأزرق، الذي كان يدفعنا بظهره!! وكانا يتبادلان الضحكات والنكات، وثالثهم . الذي يتقاسم معهم الإيراد «محصِّل التذاكر»!!
وكان عليّ . بعد حمد الله . أن أفكر في العودة بعد انتهاء محاضراتي في الحادية عشرة .. بعد ساعتين .. في آخر أيّام الدراسة!

عليّ أن أقطع المسافة من الجامعة إلى لاظوغلي. وهي تقترب من الكيلو مترات الثمانية مشيا على الأقدام.

ووجدتُ نفسي أقول. متجاوزا أحزاني. شكرا لك أيها اللص الذكي، فقد أرحتني وأرحت ضلوعي من رحلة الموت مرتين يوميا!!

ووجدتني أحدث نفسي:

يُمكنني أن أعيش في القاهرة بلا بطاقة هوية، فلم يسألني أحد عنها طوال سنتين..

لكن ماذا سأفعل في «مصروف» الشهر الأخير؟!!

ضاعت مائة وسبعة وثلاثون قرشا، هي كل ما معي.

وضاع مشروع القصة التي كانت تؤرقني وتقض مضجعي خلال الشهرين الأخيرين..

وضاع صك حوالة قيمتها اثنا عشر جنيها بالتمام والكمال،

فهل يصرفها لي مكتب بريد «الجيزة» بدون «صك»؟!!

وتذكرت. وأنا أبتسمُ في مرارة. أنني ليس معي ما يدل على هويتي إلا بطاقتي الجامعية، وهي. للأسف. غير معترف بها في البنوك أو مكاتب البريد!!

المساء 1970/3/28

---

*نشرت في المساء بعنوان « رحلة الموت مرتين يوميا».

الأعمار بيد الله

عادت «هيفاء» من العمل إلى بيتها بعد الظهر، وهي تقول لزوجها:

. مررتُ على الطبيب، وقال لي إنها عملية سهلة .. ولا بد أن أعمل العملية اليوم!

قال لها زوجها:

. إنك لم تشعري بآلامها إلا منذ أسبوع فقط، أعني أنها ليست مزمنة. وباق على العيد سبعة أيام ، والدار تحتاج إلى شغل كثير! .. نحتاج إلى غسيل وطحين .. وخبز، وتفصيل هدوم للولدين!

صرخت:

. أنت مستخسر فيَّ الفلوس؟ .. أللجنيهات السبعة التي سأعمل بها العملية قيمة؟ .. أنا سأعمل العملية وأدفع أجرها من راتبي.

قال زوجها مقاوما ما وسعته المقاومة:

. أنت تستحقين ثقلك ذهبا .. لكن البيت محتاج لك هذا الأسبوع، وبعد العيد يا ستي نعمل لك العملية كما تُريدين!

ولكن هيفاء رأسها وألف سيف إلا وتنفذ الذي قالت عليه، أليست هي المتعلمة الوحيدة في القرية؟ (حاصلة على دبلوم تجارة، وتعمل في الوحدة المحلية، ولها كرسي تجلس عليه، ومكتب لا يُشاركها فيه أحد، وهاتف خاص بها في القرية التي لا يوجد بها هاتف إلا في بيت العمدة؟).

دخلت الحجرة، وأغلقت الباب على نفسها، ثم خرجت إلى الحمّام، وظن زوجها أن عقلها رجع إلى رأسها، ولكنها خرجت بعد دقائق، وقد استحمّت، ولبست ثوبها الجديد، وقالت لزوجها:

. أنا ذاهبة إلى العيادة .. ولو كنت تريدني تعال ورائي.

ولم تكن في حاجة إلى تحديد اسم الطبيب صاحب العيادة، فالقرية ليس فيها إلا طبيب واحد، وعيادة واحدة!!

وأخذ زوجها . ابن الثامنة والعشرين . أباه وذهبا وراء «هيفاء»، أم الطفلين ماجد وصبري.

❖❖❖

في العيادة الفقيرة . بجوار المستشفى الحكومي . الذي يعمل فيه الطبيب «عامر»، وفي حجرة مبنية من الطوب اللبن، ومؤثثة تأثيثا ريفيا فقيرا، ليس في مستوى العيادات الموجودة في المركز أو المحافظة، قال لهم الطبيب الشاب، الذي عرفت القرية أنه من القاهرة:

. العملية سهلة إن شاء الله، وتطيب الأستاذة «هيفاء» منها في أقل من أسبوع، وستبقى تحت ملاحظتي ثلاثة أيام فقط.

وحينما قال الأب:

. ألا نستطيع أن نؤجلها أسبوعين حتى يمر العيد؟

أظهر الطبيب علامات الجد على محياه، ورفع النظارة الساقطة على أرنبة أنفه وهو يقول:

. إن شاء الله تشفى منها في أقل من أسبوع . كما قلت لكم . وتعود إلى البيت وتعمل الكحك والبسكويت للأطفال!

❖❖❖

في شهر نوفمبر الماضي أتى إلى القرية هذا الطبيب، وهو ليس أول طبيب يأتي إلى القرية، فقد أنشئ المستشفى منذ سبعة أعوام (تم افتتاحه في عيد محافظة الشرقية القومي، 9 سبتمبر 1962م)، وجاء قبله طبيبان وطبيبة واحدة، ولكنه أول طبيب يفتتح عيادة بجوار المستشفى، وهو أول طبيب "جريء" يعمل جراحات للرجال ولأطفال والنساء!

يقول أحمد . زوج هيفاء . مستسلما لوالده:

. إنه عمل أكثر من ستين عملية جراحية . كما علمت من ممرضه «إسماعيل» لم تخب واحدة قط! ، معظمها عمليات الزائدة الدودية، والحصوة، والقرحة، والبواسير، وختان الأطفال.

ليلة مجيئه . لأول مرة إلى القرية . مرض شيخ القرية (محمد السعدي)، وزاره الطبيب في بيته، وقال له إن عنده الزائدة، وعليه أن يعملها الآن ولا يجب أن ينتظر حتى الصباح.

وأجرى له العملية في المستشفى . وكان ذلك قبل أن يفتح «عيادة» له . ، وبعد يومين كان الشيخ (محمد السعدي) مثل الحصان!!

❖❖❖

حضر «صادق» شقيق هيفاء، وهو مهندس يعمل في مجلس المدينة، في سيارة المجلس التي يستخدمها في ذهابه وفي إيابه، ويستغني عن خدمات السائق أحيانا إذا كان يُريد السيارة في مهمة خاصة له.

سلم على الجميع، واستفسر من الطبيب عن العملية، وقال للطبيب «على بركة الله». فهو رب الأسرة . بعد موت والده العام الماضي . وقال لأحمد ووالده:

. لقد استشارتني «هيفاء» بالهاتف، وأنا في الشغل، وقالت لي إنها عملية سهلة، وسيُجريها الدكتور عامر بسهولة.

قال الأب:

- أية عملية؟ .. إننا لم نعلم بها.
- إزالة لحمية من الأنف.
- ولكنها تحتاج إلى طبيب أنف وأذن وحنجرة في الزقازيق أو المنصورة.

قال صادق، وهو يدفع الهواء بقبضة يده اليمنى:

- إنها عملية سهلة، يعملها الأطباء المبتدئون، بلا مصاعب!

قال الأب، الذي يستشيره الناس في مشكلاتهم، ويُحكمونه في قضاياهم:

- ولكنها عملية ليست ملحة، فلماذا تعملها الآن؟

وأضاف في صوت خافت اجتهد ألا يُبين نبرات غضبه:

- من الممكن أن تؤجّل العملية لبعد العيد!

قال صادق في حسم:

- ولماذا نؤجلها، وهي لا تأخذ أكثر من عشر دقائق؟!!

❖❖❖

في داخل الحجرة التي لم تهيأ يوما لأن تكون حجرة عمليّات، وعلي سرير مهترئ قديم . يبدو أن عمره أكبر من عمر المريضة «هيفاء» . ذات الثلاثة والعشرين ربيعا . أعطى الطبيب المرأة حقنة البنج المخدرة، ويبدو أن قلبها الواهن الضعيف لم يتحمل الحقنة، فأخذ يدق بعنف ثم توقف!!

حاول الطبيب النابغ أن يُعطيها حقنة منبِّهة، ولكنها ماتت!

لم يصدق الطبيب أن المريضة ماتت هكذا بسهولة.. ولم يصدق صادق الذي كان معهما داخل حجرة العمليات، أن «هيفاء» قد ماتت بمثل هذه السهولة، فأخذ يبكي بصوتٍ عال، وتشنج الممرض الذي لم يشهد مريضا يموت عندهم من قبل، وألجمته المفاجأة!

سمع أحمد وأبوه صوت نشيج صادق، فدفعا الباب ودخلا. ما هذا؟!! لطفك يا رب؟ .. الزوجة التي كانت مصرة منذ دقائق على إجراء العملية، وثائرة، سكتت .. سكتت إلى

الأبد!!

«هيفاء» نائمة ميتة على سرير العمليات، لا حركة تصدر منها، والطبيب واجم .. وصادق والممرض يبكيان!

❖❖❖

في الليل أقيم سرادق العزاء، والممرض يجلس في زاوية من المضيفة . بين قراءتين للقرآن الكريم . يشرح للفلاحين، بصوت خافت، حكاية الحقنة التي لم تتحملها «هيفاء»، والزوج ووالده يستقبلان المعزين، ويبدو أن المفاجأة ألجمتهما فلم يدمعا دمعة واحدة.

قال أحد الفلاحين للمرض إسماعيل:

. وماذا كان شعور أحمد؟

. رجل .. لم يدمع دمعة واحدة .. حملها على كتفه مغطاة بعباءة والده، إلى سيارة صادق التي أعادتها للبيت.

. العجيب في الأمر أنهما لم يُبلغا النيابة والطب الشرعي أنها ماتت ميتة ليست عادية!

انتفض الممرض:

. ومن قال ذلك؟ .. إن الطبيب «عامر» ماهر، من أمهر الأطباء، ولكن الأعمار بيد الله!

قال منصور، وهو طالب في السنة الأولى بكلية الحقوق:

. سألت أبا أحمد فقال لي ذلك؟

قال إسماعيل:

. ماذا قال؟

. قال ما قلته: .. إن الطبيب ماهر، ولكن الأعمار بيد الله!

. هل جاءكم كلامي؟

أضاف منصور مستغربا:

. العجيبُ أن والدي يُدافع عن الطبيب. قال لي منذ ساعة: أنا عملتُ عنده عملية صعبة ونجحَت، ولكن الأستاذة هيفاء عمرها هكذا!

❖❖❖

في صباح اليوم التالي جاءت النيابة وجاء الطبيب الشرعي . وتتهم أسرة هيفاء منصورا بأنه هو مَن كان وراء إخراج هيفاء من المقبرة وتشريح جثتها، ويقول منصور إنه لم يفعل شيئا، لكنه يؤكد أن الطبيب الشاب استُدعي للتحقيق، وثبت من التحقيق أنه لم يأخذ تصريحا بافتتاح عيادة، أو إجراء عمليات جراحية، . ويبتسم منصور مقررا . رغم أن والده عمل عملية جراحية مرّت على خير ولم يمت فيها!، . بصوتٍ عال: إن هذا الطبيب ممارس عام، لم يتخصص بعدُ، وليس من حقه أن يعمل عمليات جراحية، لكنه كان يقول لكل متردد على المستشفى «عندك عملية الزائدة الدودية» و«يلهف» منه سبعة جنيهات!!

المساء 1970/4/19م

رحلة أخرى

خلعت «صابرين» حذاءها .. مسحت المكان بعينيها .. اختارت منضدة ترتفع نصف متر .. صعدت فوقها.

الموسيقى تنبعث شجية خافتة، لكنها سرعان ما تعلو شيئا فشيئا .. وتحاكي صوت أغنية «أنت عمري» لأم كلثوم، بموسيقاها الراقصة التي تألفها آذان الجميع.

يتلوى جسدها الثعباني.

الأكف تشتعل بالتصفيق ..

تشعر لغثيان حينما ينبعث صوت المغني المخنث من المسجل.

ما الذي أصابها اليوم فقيّد خطواتها فل تعد تتخطر كمهرة؟ .. إنها لا تشعر بالرقصة، ولا تستمتع بها كما كانت تستمتع طوال الليالي الماضيات.

ثلاث سنوات تتربّع على عرش الرقص الشرقي، اختارت ملهى «ليالي الجنة» لأنه ينفرد بتقديم الراقصات وحدهن، مع مغنين مجهولين يغنون لهن الأغنيات ذات الموسيقى الراقصة!

ما الذي أصابها فجعلها لا تشعر بلذة أو جمال في الموسيقى والغناء، وفي هذا الذي تفعله من حركات يبتسم لها الرجال والنساء شبه العاريات؟!

أنّى تنظر . في كل ناحية . ترى أختها التي ماتت أمس، وترى أباها الذي رحل منذ خمسة أعوام بلحيته الخفيفة البيضاء وبسمته الهادئة التي تغمر المكان؟

ماتت أمها وهي طفلة، ومات أبوها ولم تبق لها إلا أختها « عبلة» .. وهاهي عباة قد ماتت قبل أن تحصل على الثانوية العامة.

تزداد الموسيقى صراخا .. لكنها لا تشعر بها .. تهبط من فوق المنضدة .. وتدل إلى حجرتها القريبة، وتمسح أصباغها بالمنشفة قبل أن تغسل وجهها!

مسئولو الصالة يعجبون مما فعلته «الملكة» .. والمدير يصرخ: لماذا لم تُتم عرضها؟ .. لكن النور الدّاخلي كان يغمرها .. فلا ترد على استفساراتهم الصارخة.

تكلموا كثيرا دون جدوى.

كانت مشغولة عنهم بما تراه رأي العين؛ فأختها عبلة تفتح أحضانها الطاهرة لاستقبالها، ووجه أبيها المبتسم يملأ المكان .. والجنة . الجنة الحقيقية . تُناديها!

الرياض 2002/5/31م

في المدى قنديل يضئ

(1)

ها نحن جميعا قد خرجنا من سجون السلطة، وتبوّأنا المناصب، وكان الوقوفُ خلفَ الحكم الوطني وتأييده مدخلا لنا .. في المشاركة في حكم ثوري حلمنا به منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، بل منذ ثورة 1919.

صار أحدُنا رئيسا لقطاع السينما، وصار الثاني مشرفا على هيئة المسرح، وثالث رئيسا لمجلس إدارة إحدى الصحف، وهاأنا قد صرتُ مديرا للرقابة على المسرح.

أنا واحد منهم ومعهم، فلماذا يتهمونني بالتحمس لنص «الأستاذ وتلميذه» .. الذي كتبه رفيقنا القديم حسام منير الذي أخذ بأيدينا جميعا إلى دروب النضال، وعلمنا كيف نحلم بالتقدم، والغد؟! .. لكنه بعد قضاء عدة سنوات بالسجن، ترك القاهرة وعاد إلى طنطا، ليُدير مدرسة

إعدادية، وهو على مشارف الخامسة والخمسين، يعيش وحيدا دون زوجة أو ولد، فقد ماتت زوجته وهو في السجن، ومات ابنهما الوحيد من عدة أعوام تحت عجلات سيارة طائشة!! .. موت أقرب إلى الاغتيال.

اختار أن يكون قنديلا بعيدا يُضيء دربا ما من دروب الوطن الرحب، والمترامي الأطراف.

يقول عنه أحباؤه وعارفوه إنه شمس" تُضيء المدى، في تجرد وإخلاص نادرين.

(2)

قدّم حسام منير نصه المسرحي منذ ثلاثة شهور، ووضع له عنوانا صارخا «لماذا انهزمنا؟!»، فاقترحتُ عليه أن يعدّله، فكتب فوقه بالقلم الجاف «الأستاذ وتلميذه».

قالت لي جميلة عودة:

. لماذا لا يريدون عرض هذا النص المسرحي الجميل، الذي قرأته في جلسة واحدة، فرأيته يضع يديه على الجرح الذي سالت منه دماء غزيرة؟

فصمتّ!

أضافت:

. .. لعل السبب أنه مازال مُحافظا على انتمائه الحزبي، لذلك الحزب السري، ولم ينضم معنا . أو مع قوافل المنضمين . للاتحاد الاشتراكي.

وخرجت إلى مكتبها لتُجري مهاتفة.

.. لم تعرف المسكينة أنه ترك الحزب الشيوعي، وفارقه للأبد!!

قال لنا الأستاذ حسام منير حينما سألناه بعد الخروج

من السجن من ثلاثة أعوام:

- لماذا لا تجيء معنا إلى الاتحاد الاشتراكي؟
- أنا سأعود إلى طنطا لأربي أجيالا مؤمنة تصنع الغد، وأقرأ التاريخ الذي هو حبي ومهنتي.
- والعمل السري؟
- كفرتُ به بعد أن رأيت من تاجروا به يصلون إلى المناصب، ويتمسكون بها كأنها غاية المراد من أحلام العباد.
- وما رأيك في الانضمام إلى حزب عبد الناصر؟
- تقصدون الاتحاد الاشتراكي؟
- وهل هناك غيره؟!

يرجع برأسه إلى الوراء، ويضحك ضحكة مشروخة، ويضرب يده اليمنى باليسرى لتُحدث فرقعة صاخبة:

- إنه لا حزب ولا يحزنون.

ويُضيف مكتئبا:

- إنه شيء .. بلا لون ولا طعم ولا رائحة!

قلت مبتسما، وأنا أضع فمي على أذنه:

- هل ستكوِّن خلايا شيوعية جديدة؟

انتفض كمن به مس:

- لم أعد شيوعيا يا أستاذ!

فاجأتني لهجته، فتلفتّ حولي، وقلتُ له:

- اطمئن .. لم يسمعنا أحد!

قال مبتسما:

- يا أستاذ أنا لم أعد شيوعيا!

قلتُ له:

- هل أثّر فيك الإخوان في المعتقل؟
- لستُ منهم، لكنهم. كثّر الله خيرهم. أوقدوا فيَّ شمعة الإيمان من جديد! .. وأعادوا لي الأمل في الحياة في ظلال العقيدة!

هانحن . في منتصف أبريل 68 . نجتمع لقراءة نصه الذي يبدو عند البعض مُلغزا ومثيرا، بعد هزيمة يونيو القاتلة، و«بيان مارس» الذي أذاعه عبد الناصر، وخطط فيه بجرأة وطموح للمستقبل.

أقول: فلنبدأ به .. بإبداء الملاحظات على النص، أو تلقي آراء من طالعوه.

لكنهم يضحكون، ولا يريدون أن نقرأ شيئا، ويقترحون الرفض، وبلا سبب!

الرفض بدون قراءة لنص أستاذهم الذي علمهم كيف ينظرون إلى الغد؟ .. لماذا؟

لأنه رفض أن ينضم إلى الجوقة؟!

أم لعودته إلى الدين؟

...

النص يدور حول ثوريين قديمين، يتاجران بهموم الناس، ويلوكان كلمة «الاشتراكية» بإدمان غريب، ويبيعان الكلام في سوق أشبه ما تكون بسوق نخاسة عصري!

لماذا يخاف من النص الرفاق السابقون الذين يتربّعون على قمة هرم السلطة؟! ويتعاونون . أو هكذا يقولون . مع أركان نظام يُحاولون ابتلاعه إذا وجدوا الفرصة الملائمة لذلك .. والنظام يستعصي على مُحاولاتهم!!!

ظل النظامُ قادرا على الانتماء لتراب هذه الأرض.. وحتى وهو يترنّح بعد الهزيمة، لم ينس أن الرفاق انضموا إليه بصعوبة، وكانوا يؤثرون أن ينضموا إليه كمنظمات لا أفرادا!

هل النصّ يفضح هؤلاء حقيقة كما قالت لي أمس جميلة عودة رئيسة لجنة القراءة ومساعدتي (مساعدة مدير الرقابة)؟!

يضحك الناقد الجامعي البدين (الدكتور سعد زهران)، القارئ المتعاون، الذي كان رفيقا لنا من قبل. وهاهو في رجعيته المقيتة يدّعي أنه يُحافظ على أخلاق الشعب من الانهيار الذي ستأتي به مسرحية، بطلها رجلان ينهبان الشعب ويتشدقان بالكلمات الكبيرة التي لا تُشبع جائعا، ولا تُشارك في صدِّ هجوم الصهاينة الذين يستحمون الآن في قناة السويس!

.. متى كانت لك أخلاق يا وغد؟!!

وهل ترفض نص الأستاذ حسام منير لأنه يفضح أمثالك من المتسلقين، الذين لا يُبصرون إلى مدى أكثر من رغباتهم الشخصية؟

يقول:

. كان من الأفضل أن يجعل في المسرحية بطلة من الطبقة الكادحة .. تغسل في البيوت حتى تربي أولادها، ومخدومها (أو أستاذها) يريد الزواج منها، لأنه معجب بكفاحها!

أو يكتب عن عامل أو فلاح ابنه يُقاتل على الجبهة.

قلتُ في لوم لهم:

. اكتبوا أنتم هذا النص .. أو هذه النصوص لنقدمها على مسرح الدولة .. نحن تقرأ نصوصا ولا نقترح موضوعات!

تخرج جميلة عودة .. وينفضّ الرفاق مصرين على الرفض دون قراءة، ويبقى صبري جميل وسعد رمضان.

صبري يغني لرمضان أغنيته المفضلة:

. ماذا يشغلك الآن يا سعد؟!!

. لا شيء!

. كنتُ أريد أن أسألك ..

. تفضل ..

يسأل في صوت هادئ، كمن يُحدث نفسه:

. ماذا يريدُ أن يقول صراحة هذا النصّ الذي رفضناه؟

ينفعل سعد رمضان، ويندفع خارجا من الباب:

. إنه يفضحنا يا صبري .. ولذا كان لا بد من رفضه.

.. وصبري يسألني غير مصدق:

. هل يقول ذلك حقيقة؟

أجبتُ، وأنا أحاول أن أخفي غضبي:

. لا أدري؟ ..

قال في ود حقيقي:

. عمّ يتكلم إذن؟

. إنه يرينا أستاذا وتلميذه وهما يتكلمان ويتكلمان ويتكلمان .. دون أن يفعلا أي شيء .. أي شيء .. أو أي فعل حقيقي؟

قال صبري ضاحكا:

. وما الضرر في كلامهما؟ .. لقد تكلمتُ أنا أيضا مع الأستاذ حسام منير من يومين هاتفيا، وطلبت منه أن يعود إلى القاهرة، وطلبتُ منه أن يتزوّج شغّالة مسكينة تعمل عند جاري، بدلا من أن يُضيع حياته في طنطا، يُعلم الأطفال! .. وضحكنا وتبادلنا كثيرا من النكات!!

.. ويقلب صفحات النص . دون قراءة . ويقول في اشمئزاز ظاهر:

. مسكين!! .. سيضيع عمره في الكلام .. أضاع معظمه في الحديث والتبشير بالشيوعية .. وسيُضيع القليل الباقي في ذمّها، وهو يُحاول أن يُخرجَ أفضل ما نسمعُ من كلماتٍ ثوريّة؟!!

قام في تثاقل يستأذن:

. أنا أقسم لك أنني لم أره منذ إغلاق خليج العقبة قبل حرب الأيام الستة، منذ أحد عشر شهرا تقريبا، وهو . كما يبدو . مكتئب .. لماذا يكتب إذن إذا كانت كلماته تشبه الطعنة فينا أو تُشبه شهادة الزور ونحن تلاميذه؟!

قلتُ معترضا:

. أولا أنت لم تقرأ النص لتحكم عليه، وثانيا: ألم تقل من دقيقة واحدة إنه كان يتبادل النكات معك أمس؟

قال وكأنه بوغت:

. أنا الذي كنتُ أقول النكات في الهاتف، وكان يُشاركني الضحك أو التعليق.

قلتُ له وأنا أشعر بغثيان:

. لماذا تخافون من النص وصاحبه قد ترك القاهرة لكم، وذهب إلى موطنه في طنطا، وترك لكم الجمل بما حمل؟!

.. ولم يُجب!!

.. استأذنتُ منه، وأغلقتُ النص المسرحي، وغادرتُ قاعة الاجتماع التي كانت تفوح منها رائحة اغتيال خبيثة!!

ديرب نجم 2000/8/20م

ومضة الرحيل

هند . صاحبة البيت . أرملة جميلة، بيضاء، في الثامنة والأربعين.

وفريد . حاصل على مؤهل عال في الإعلام . يبحث عن عمل، ويُراوده أمل!

حينما وقفا . عاريين، الرجل العزب والمرأة الجميلة الممتلئة . وحيدين، في حضرة الراعي، بعدما دقت أجراس الفضيحة .. تضاحك الرجال والنساء.

الرجال الذين قالوا إنهم يمشون على الصراط المستقيم، وتشبث كل منهم بمسبحته، كأنه ستشهد على طهارته.

والنساء اللاتي لم يضحكن ضحكة بريئة أبدا.
كان فريد وهند يلعقان جراحهما،
ويشهدان أنهما خاطئان،
وأن خطيئتهما تُفسد مياه نهر النيل.

...

أشار الراعي بذراعه، فانطلق الأطفال . الذين لم يُخطئوا أبدا . يقذفونهما بقطع الحجارة الصغيرة.

كان المشهد بعد صلاة المغرب، ولكن الأفق لم يُظلم!

كانا يريان شموسا صغيرة تجتهد أن تضيء
وكان زورق هند وفريد الهادر بالخطيئة . بعد قلق ثلاثة أشهر وعواصف أربعة عشر يوما وضياع تسع ساعات وجحيم خمس وأربعين دقيقة .. يرسو أخيرا . بعد حكم القاضي...

على شطآن السكينة،

والإيمان،

والموت الطاهر الذي يعني الحياة!

وأومض السيف فرأيا عصافير صغيرة تحط فوق رأسيهما، وسمعا صوت أناشيد بعيدة ترحب بالملكين الطاهرين.

ديرب نجم 2003/8/21م

النظر إلى الخلف

كان مرتديا جلبابه الفلاحي المتسع، في ذلك الصباح الشتوي من يناير، واضعا يديه خلف ظهره .. يمشي مشية متئدة حتى لا يظهر العرج الخفيف الذي أصاب خُطاه بفعل داء «النقرس» اللعين، تصحبه زوجته وقد هبطا درج العمارة الكبيرة حيث زارا ابنهما الوحيد المهندس «طلحة» لتهنئته بافتتاح مكتبه الهندسي، الذي افتتحه بعد عودته من ألمانيا حاصلا على الدكتوراه في الهندسة. ذلك المكتب الذي يعمل فيه معه مهندس ومهندسة وأستاذ استشاري كبير.

توقفت زوجته «الدكتورة منى» . الأستاذة بكلية الزراعة، والمعروفة في المنطقة . عن المشي لتكلم سيدة استوقفتها. يبدو أنها تُريد مساعدتها في شيء، أو تسألها عن نتيجة ابنها أو ابنتها في الفصل الدراسي الأول.

قلل خطواته لتلحق به زوجته دون مشقة، بعد أن تنتهي من أمر هذه السيدة.

الزقازيق التي كانت تبدو كقرية كبيرة أيام أن كان طالبا بالمرحلة الثانوية في منتصف الستينيات .. ها هي

تتسع وتتسع في السنوات العشر الأخيرة التي ترك فيها جامعته مستقيلا، وذهب إلى الإمارات ليتخفف من الصراعات والمشاكل التي كابدها في جامعته التي أسسها.

سمع صوت السيدة التي استوقفت زوجته يأتي من الخلف:

. الدكتور محمود الأنصاري؟

رد في تلقائية، دون أن يترك لزوجته فرصة الرد:

. نعم يا أفندم، محمود الأنصاري.

نظر، وجد امرأة سمراء عجفاء تُقارب الخامسة والخمسين. ظنها لأول وهلة سائلة، فأدخل يده في جيبه ليُخرج صدقة تليق به، ليُعطيها .. ضحكت:

. أنا سميرة عاكف.

أخرج يده من جيبه بسرعة، وضرب جبهته كأنه يوقظ ذكريات مر عليها أكثر من ثلاثين سنة.

. ياه .. ليس معقولا؟

صافحها بحرارة، وهو يقول لزوجته:

. كانت سميرة زميلتي في كلية الاقتصاد من ثلاثين سنة. كانت مع أول دفعة التحق بها أبناء الفلاحين بعد هزيمة 67.

وقال وهو يؤكد على كلماته:

. لكنها ليست فلاحة! فأبوها كان مدير أمن الشرقية الأسبق.

ضحكت سميرة، فأنارت ضحكتها وجهها الأسمر، وهي تقول في حرج:

. مازلت تتذكر؟

كاد أن يكمل «كان نفسي أشوفك يا سميرة من زمان» .. ولكنه كتمها في فمه!

ومر في فكره أنه توجه إليها خاطبا بعد التخرج، ولكن والدها لواء الشرطة (اللواء محسن عاكف) أوصد الباب في

وجه ابن الفلاح الصغير.

قال لها مبتسما ابتسامة عريضة اعتاد أن يراها من يعرفه كلما تحدّث:

. إلى أين أنت متجهة؟

أشارت إلى الطابق الرابع من العمارة التي هبط منها:

. طالعة لرؤية ابنتي المهندسة «شيرين» التي تعمل في «مكتب طلحة للاستشارات الهندسية».

صافحها متعجلا، ولم يسأل زوجته إذا كانت تعرف سميرة أم لا؟

ووجد ريقه يجف، فلم يسأل سميرة:

. أتعرفين أن طلحة ابني؟.

مشى عدة خطوات، ووجد زوجته مشغولة بتصفح واجهات المحلات، فنظر إلى الخلف خلسة، ووجد سميرة أيضا تنظر خلفها!

الرياض 2004/3/5م

بلا دموع .. !

دعا حسام الله أن تكون خطيبته هند مع أمها فقط في البيت، وأن يكون أخوها عمر مدرس الفيزياء في مدرسة القرية الثانوية . الذي يكبرها بعامين قد ذهب لحصة دروس خصوصية صيفية، وتمنى أن تفتح هي الباب، حتى ينعم بنظرتها التي يُحب أن يراها دائما.

أما والدها المهندس عثمان فهو متأكد أنه لن يراه، فهو يعمل في شركة بترول بالصحراء الشرقية، ولا يعود إلا كل شهر مرة ليُمضي مع أسرته عشرة أيام، وهو قد سافر منذ عشرة أيام لا غير.

لكن الله لم يستجب دعاءه، فقد فتحت له الحاجة عنايات (أو أم عمر) الموجهة المالية والإدارية بإدارة الزقازيق التعليمية.

❖❖❖

قدّمت أم عمر الشاي لحسام وابن خالته صدقي . وهو محاسب بإدارة المنصورة الهندسية، وأشيب، وفي الخامسة والأربعين . ولاحظ حسام أن أم عمر متوترة، وأن بريق دمعتين منطفئتين في عينيها.

قال:

. أين هند؟

. في الإسكندرية.

. لماذا سافرت وحدها؟ .. اعتادت ألا تسافر إلا معي أو مع الأستاذ عمر.

قالت أم عمر في آلية:

. الإسكندرية قريبة.

بلع ريقه في صعوبة:

. ومتى ستعود إن شاء الله؟

. قبل نهاية الإجازة بأسبوع.

نحن في أول الإجازة .. فهل ستُمضي شهرين عند خالها في الإسكندرية؟ .. وكيف سيقضي هو هذه الفترة العصيبة؟

❖❖❖

دخلت أم عمر إلى الحجرة المجاورة، وعادت وهي تحمل حقيبة يد سمراء كم رأى هند وهي تحملها في كتفها، وكم وضع لها بعض الورود فيها، وهما يمشيان معا في الزقازيق.

خطبها منذ عام، وقدّم شبكة متواضعة من دبلتين: ذهبية لها وفضية له، وابتدأ يجمع القرش إلى القرش حتى يُؤثث شقته المتواضعة . التي تتكوّن من حجرتين . في الزقازيق.

كانت هند غير راضية بها، لكنها تعرف أن العين بصيرة واليد قصيرة وسيستأجران . فيما بعد . شقة أخرى تكون أوسع من تلك التي كجحر الثعلب، ولا تزيد عن سبعين مترا.

حسام وهند من قرية لا تبعد كثيرا عن الزقازيق، كانا في مدرسة واحدة منذ المرحلة الابتدائية، فالإعدادية،

فالثانوية. وكانا يتنافسان دائما على المركز الأول. والتحقا بكلية التجارة، وهاهما قد تعيّنا معيدين منذ ثلاثة أعوام.

كانت حكاية حبهما على كل لسان منذ نهاية المرحلة الثانوية.

❖❖❖

جلست أم عمر على الكنبة، ووضعت الحقيبة بجانبها.

قال حسام:

ـ لم تقل لي هند أنها ستُسافر لزيارة خالها الباشمهندس محمود في الصيف.

جو القرية خانق .. يحس برائحة خانقة .. لعلها رائحة يد حلة محروقة، تختلط برائحة سمك نفاذة .. يبدو أنها منبعثة من البيت المواجه الذي يبعد ثلاثة أمتار فقط عن الحجرة التي يجلسون فيها.

قال صدقي لحسام وهو يميل على أذنه:

ـ عجِّل .. أحس برائحة غير طيبة تملأ المكان!

يبدو أن أم عمر قد سمعت الملاحظة، فبدا على وجهها ما يشير إلى الامتعاض.

قال حسام:

ـ ولماذا لم تقض الصيف هنا؟

قالت أم عمر:

ـ ابن خالتها الدكتور محسن عاد من أمريكا .. وذهبت لتسلم عليه .. وأنت تعلم أن شقة الدكتور محسن تُواجه شقة خالها محمود.

كان محسن يكبره بأربعة أعوام تقريبا، وكان الأول على مدرسة القرية دائما.

تذكر أنه حينما توجه لخطبتها منذ عام سمع من أحد فلاحي القرية أن هندا على علاقة بمحسن ابن خالتها.

قال ـ وهو يبلع ريقه بصعوبة ـ ولا يكاد هو نفسه يسمع

صوته:

. لقد عاد من أمريكا بسرعة!

قال صدقي وهو يبتسم:

. بل الأيام هي التي تجري بسرعة!

قالت أم عمر وهي تؤكد على حروف كل كلمة، وتهش بيدها اليسرى ذبابة تُصر أن تقف على أنفها:

. نال الدكتوراه في زمن قياسي.

رآته ينظر في الأرض ويفرك أصابعه، فأضافت:

. حصل على الشهادة في عامين ونصف، وكانت جامعة الإسكندرية قد أوفدته في بعثة لخمسة أعوام.

سأل صدقي الذي يُقيم في المنصورة من خمسة وعشرين عاما . وهو من جيل أم عمر، ولا يعرف معظم أبناء القرية:

. الدكتوراه في الطب؟

قالت الموجهة المالية:

. لا .. في علم الاجتماع السياسي.

❖❖❖

تذكر حسام أن هندا في لقاءاتهما الأخيرة كانت تكلمه عن ابن خالتها «محسن» كثيرا، وأنها كفت عن غناء أغنية أم كلثوم الأثيرة «الأطلال» التي كانت تغني مقاطع منها كلما تُقابله في حديقة الجامعة، وتشتبك أيديهما معا.

رفع حسام كوب الشاي فوجده باردا، وكان ابن خالته «صدقي» قد انتهى من كوبه.

قال للسيدة أم عمر وهو يهم بالقيام:

. لقد تأخّرنا .. تُصبحين على خير .. سلمي لي على الأستاذ عمر حينما يجيء.

قالت في آلية:

. سيأتي بعد قليل .. ألا تنتظره؟

. الوقت متأخر كثيرا ..

وأضاف وكأنه يتخلص من الكلمات:

. سأراه في زيارة تالية إن شاء الله.

مدّ يده ليسلم عليها، ولكنها كانت مشغولة بفتح الحقيبة السوداء، التي أخرجت منها علبة قطيفة حمراء .. علبة لا يجهلها، وفتحتها قليلا فرأى دبلته لهند.

أغلقت العلبة، ووضعتها في ظرف أبيض، وقالت . وكأنها تؤدي مهمة رسمية. بلا مشاعر:

. هذه رسالة من هند لك.

أغمض «صدقي» عينيه وتحرك خطوتين إلى الأمام ليُغادر الحجرة، ولم يسألها «حسام» ماذا في هذه الرسالة؟ ومدّ يده أمام أم عمر ليخلع دبلته الفضية، ويضعها في الظرف نفسه، ويُمرر لسانه على حافة الظرف ليلصقه بهدوء، ويضعه في جيب بنطلونه الخلفي .. بلا دموع!

ديرب نجم 2003/8/17م

تلك الليلة

1-الزعماء يغيرون الجغرافيا:

هربتُ من السجن، حينما عبرتُ النفق الذي يمتد أربعة عشر مترا تحت الأسوار.

تخيّلتُ صديقي الناصري صبري عبده حينما يصحو ويكتشف هروبي، فيصرخ في أقرب جار له في السجن:

. عثمان خائب وغرير .. لماذا هرب؟ .. سيجيئون به من تحت الأرض .. ويعذبونه!!

أتخيله يلحق بي، ويصرخ:

. لماذا هربتَ من السجن؟

ويحاول أن يشدني ليرجعني إلى السجن رأفة بي وخوفا عليّ، فأوشك أن أفتك به.

لكني على كل حال تركتُ الأسوار ورائي ... فلماذا أشغل نفسي به؟

توقعتُ أن أضرب بالرصاص ساعة الفرار .. يُطاردني جندي مع زملائي الثلاثة الفارين، ويطلب منا التوقف،

فنجري، فيُطلق علينا النار.
كيف ستستقبلني أمي؟ وهل ستكلمني كلامها المعهود .. لقد جاوزت الأربعين يا بني .. فمتى تُسعد قلبي ببنت الحلال؟ .. ثم تقصّ لي ما جرى لأبناء القرية جميعا في غيابي .. الذين تزوّجوا .. والذين ماتوا .. والذين سافروا للعمل في ليبيا والعراق.
هل سأستطيع أن أمكث يوما مع أمي التي شُغلت عنها في السنوات الخمس الأخيرة بالعمل مخرجا مسرحيا في القاهرة؟.
قال لي صبري عبده محذرا:
. أنت واهم إذا ظننت أنك ستغير التاريخ.
وضحك:
. الزعماء وحدهم هم الذين يغيرون التاريخ والجغرافيا أيضا.
وحين رآني مستغربا:
. حينما ينتصرون يغيرون التاريخ، وحينما يتركون أرضهم لأعدائهم كما فعل زعماء العرب في حرب 1967م، فهم يُغيرون الجغرافيا!
كيف يكون ناصريا ويتكلم عن زعيمه بمثل هذا الجنون؟!!
بصقت بصقة كبيرة ناحيته، وأنا أقول في سري:
. وغد، سافل.
أضاف ضاحكا:
. لا تغضب يا سيدي! .. ليس زعيمنا وحده من غيّر الجغرافيا!
وأضاف بلهجة ساخرة:
. زعماء كثيرون فعلوا مثلما فعل زعيمك.
وقال وكأنه يُغني سخرية ومرارة:
. يا قلب لا تحزن!

2-التجربة الأولى:

أصرّ مساعدي محمد فهمي على أن يحذرني من مغبّة معارضة السادات في ذهابه للقدس، وقال لي:

. إن شعبك . أيها الناصري الحالم . تعب من القتال والحرب، ويريد أن يعيش.

قلتُ في قرف:

. ولكن إسرائيل لن تتركنا!

قال وهو يرتدي مسوح الحكمة:

. ستعيش وحيدا.

وأضاف:

. اقرأ جيدا التاريخَ الذي يقول: إن أبا ذر قد لفظ الأنفاس وحيدا في الربذة.

قلتُ . مُتغابيا عن مغزى كلماته . في قرف:

. ما علاقة الصحابي الجليل بعالمنا الآسن؟!!

وضحك:

. كانت معهُ زوجهُ.

فقلتُ له وأنا أدير وجهي للناحية الأخرى:

. أنا غير متزوج!

ثم استدركت:

. وأنت أيضا ناصري .. لكن سلوى .. خنساء هذا العصر . أقصد خطيبتك الشاعرة الممثلة. ستُخالف التاريخ.

فقال في لهجة تمثيلية:

. لماذا يا سلوى جعلتِ أبا ذر يعودُ إلى مكة، ويُقابل السلطان ويقول له ما لا يُحب سماعه؟!!

تحدّثتُ مع بطل مسرحية «ليلى والمجنون» . في استراحة من التجارب . وهو من المعجبين بالرئيس المؤمن، فقلتُ له: إن نص الخطاب الذي ألقاه السادات في القدس أكثرُ من رائع، لأنه يجعل أمريكا اللاعب الأول . الذي يملك

كل أوراق اللعبة! . في المنطقة، ولا مانع من أن نحول هذا الخطاب إلى نص مسرحي يجعلُ مصر في صورة حسناء تُباع في سوق الرقيق بدولارات "مضروبة"؟!، فقال ضاحكا:
. ولماذا لا نبدأ تجارب إخراج هذا النص . بعد أن تستكمل كتابته . في القدس المحتلة، وفي عيد الأضحى القادم؟
الوغد ..
أخطأتُ في اختيار من أفضي إليه بخواطري ..

3-صفحة من مذكراتي:

22 ديسمبر 1977م:
« قال لي صبري عبده:
. لماذا لحقت بنا هنا؟
. لأني فكرتُ في كتابة نص مستوحى من خطاب الرئيس المؤمن، وفكر سامح سري في أن أخرجه في القدس المحتلة.
ضرب الباب بقبضة يده:
. سامح سري مباحث! هل كنت تهذي؟ ..
قلتُ في حزن:
. لم أكن أعرف.
صمتنا برهة، فأضاف:
. والنص؟ .. هل كتبته؟
. لا..
وقلتُ وأنا أبدي الفزع لأريحه:
. وهل يحاسبونني على نيتي؟!!
لم يرد!
... وضحكنا ..
...

يضحك صبري عبده . المسجون قبلنا من يناير 1977م، في أحداث الخبز . حينما يسمع قصيدة . مجهولة القائل . عن تحرير القدس، فتمتلئ عيناه بالدموع، ويقول:

. القدس ثالث الحرمين، نحبها ونعتز بها، لكنها لن تعود إلينا أبدا.

قلتُ:

. ستعود .. بألف تأكيد.

وأضفتُ:

. لقد احتُلت من قبل في زمن الصليبيين، وأعادها صلاح الدين.

قال ملحنا ما يقوله في حزن:

. صلاح الدين لن يعود يا حبيبي، لأن الجالسين على الكراسي لن يتركوها!!

قلتُ:

. الشعوب ستجبرهم على ذلك؟ وستنضم إلى صلاح، وتُحارب في صفوفه!

قال وهو يدير وجهه للناحية الأخرى:

. وحاميتهم أمريكا . التي تُمسك أوراق اللعبة كما يقول الرئيس المؤمن . أين ذهبت؟ ..

وأجاب على سؤاله مقهقها في حزن جريح:

. هل أكلتها القطة؟

لعنتُ . في سري . صبري عبده ومن على شاكلته من الناصريين المثبطين، وثوار الزمن الأخير، الذين يُسجنون ويضيعون أعمارهم في السجن بلا قضية .. وبلا أفق!

وذكرتني أقواله بقصيدة سمعتُها من يومين من شاعر مسجون آخر . يبدو أنه من فصيل ماركسي . وكنا نتكلم عن الزمن القادم الجميل، فأخرج من جيبه قصيدة يتحدث فيها عن صورة العالم الذي يريده بعد خروجه من السجن، يقول فيها:

وأنا أيضا
أحلمُ بالزمن القادم ..
يبتلعُ الفقاعات الطافية على الوجهِ .. ونُصبحُ قممَ الأشياءْ
سنصيرُ السادة
سأصيرُ رئيسا عصريا
يشربُ كأسَ الويسكي في الحانة
ثمّ يعودُ سريعا ..
ليُضاجعَ زوجَ رئيس الوزراء!!

4-أصل القضية:

مشيتُ بعد منتصف الليل على شاطئ الترعة التي أعرف أشجارها، والتي ستوصلني إلى قريتي حيث بيت أمي!
لا أريد أن أتذكر تلك الليلة الأخرى السيئة .. ليلة القبض عليّ.
قال لي مساعد المخرج: سأتزوج سلوى الخميس القادم .. يا أستاذ .. سلوى .. شاعرة لا ممثلة! (ووجّه كلامه لها) لم تستطيعي أن تنجحي كممثلة في المسرحيات الست التي مثلتِها من قبل .. لم تعقب سلوى، وضحكت وهي تتذكر المسئول الكبير . المعجب بها والذي يُطاردها هاتفيا . والذي يجلس دائما في الصف الأول .. ولا يُشاهد شيئا من أدائها لأنه ينام ..
وقلتُ ضاحكا:
. إذا تزوجتما .. فمن يمثل دورك في «ليلى والمجنون»؟!
ضحكت ..
وضحكنا .. واغمضتُ عينيّ لأفتحهما على ضابط وشرطيين .. يطلبان مني التوجه معهما إلى (لاظوغلي):
. خير؟

. سؤالان، وتعود إلى بروفاتك.

ولم أذهبَ للاظوغلي للتحقيق، وإنما إلى السجن مباشرة .. السجن الذي فيه صديقي القديم، وزميلي في منظمة الشباب: صبري عبده .. لنتشاجر، ونضحك، ونحزن! .. ونقضي معا ستة أشهر .. مليئة بالحوار، والشجن، والعذاب!

5-لحظة الفاجعة:

هاهي قريتي الغافية لا تصحو على وقع خطوات ابنها الذي لم يزرها منذ عام ونصف تقريبا.

رأيتُ أمي نائمة، لا تتحرك، ولا تفتح عينيها.

بدأ الحلم ينحسر .. الخارج ليس أقل شراسة من السجن.

.. أخبرني أخي محمد أن أمي مصابة بجلطة منذ شهرين، وأنها لا تعي شيئا مما يدورُ حولها، رغم عَرْضِها على أكثر من طبيب خاص .. فمستشفى القرية بدون طبيب! .. وأخبرني أن زوجته ماتت منذ عشرين يوما . لماذا لم يصلني الخبر؟ .. هل كنتُ بعيدا جدا؟ .. وهل السجن ناءٍ إلى هذا الحد؟ .. هل كنتُ في واق الواق؟ . وأخبرني أن ابنته الوحيدة تعمل الآن مدرسة في سلطنة عمان منذ تزوّجت في أواخر الصيف الماضي.

الساعة الرابعة صباحا .. هل سأصلي الفجر في المسجد؟ .. أم أن الأفضل أن أصلي في البيت حتى لا يراني أحد؟!!

...

صافرة عربة الشرطة تقطع الصمت!

.. لم أستمتع بهروبي ..

يبدو أن أسوار السجن الكبير تمتد بعرض الوطن وطوله!!

ديرب نجم 1983/9/15م

لن يُكلِّم نفسه في الشارع

(1)

الأربعاء 31 من مارس 2004م:

دخلت مكتبة «جرير» أبحث عن بعض الكتب، لأستكمل بحثي الذي أعده لملتقى أدبي في الأردن يُعقد بعد شهرين.. ويُشارك فيه بعضُ أساتذة النقد الأدبي في جامعات عربية وأجنبية.

لم أجد جديدا..

هذه الكتب لديّ في مكتبتي..

فلأعد إلى البيت لأشاهد برنامج «بلا حدود».. حاولتُ أن أتذكر اسم الضيف فلم أستطع!

....

.. وأنا أطالع واجهات المحلات في شارع «العليا» حيث أسكن، وجدتُ أمامي «مكتب الزهراء للسفر والسياحة»، رأيتُ موظفين يجلسان على مكتبين متجاورين: أحدهما سعودي والآخر مصري. اقتربتُ من المصري، وسألتُه:

. هل هناك رحلات الليلة إلى جدة؟

تحرّكت أصابعه على لوحة مفاتيح الحاسوب، وقال

بعد أقل من دقيقة:

. أربع رحلات.. الثامنة والنصف، والتاسعة والنصف، والحادية عشرة والنصف، والثانية صباحا.

نظرتُ في الساعة فوجدتُ أنها تقترب من الثامنة.. فقلتُ:

. احجز لي في موعد التاسعة والنصف.. واجعل العودة بعد يومين.. بعد ظهر الجمعة.

قال وكأنه يُخاطب نفسه:

. الجمعة الثاني من أبريل؟ ..

حدّق في الحاسوب الذي أمامه، وضغطت أصابعه على لوحة المفاتيح .. صمت لحظة، ثم رفع رأسه إليّ:

. هناك موعدان .. الثانية والرابعة.

قلتُ دون تردد:

. الرابعة أفضل .. حتى نصلي الجمعة هناك، ونأخذ راحتنا!

أخذتُ التذكرة، ونقدتُ الموظف 560 ريالا قيمتها، واستوقفتُ سيارة أجرة لتعود بي إلى البيت لآخذ حقيبتي شبه الجاهزة للسفر، وفيها بذلة مكوية، وبعض الملابس الداخلية، ومجموعة محمد جبريل القصصية «سوق العيد» التي ظهرت منذ ثمانية أعوام، ولم أجد الفرصة لقراءتها.

ركبتُ سيارة الأجرة.. أخرجتُ هاتفي الجوّال، فجاءني صوت هاشم من الطرف الآخر:

. كيف حالك يا أبي؟

. انتظرني في مطار الملك عبد العزيز في الحادية عشرة.

قال وكأنه غير مصدق:

. متى؟.. الليلة؟

. الحادية عشرة الليلة يا هاشم.

قال وهو يطير من الفرح:

. ستجدني أنا و«شادية» في انتظارك.

(2)

في الطائرة جلستُ على المقعد 37 (A)، ووجدت المقعد الذي بجواري خاليا، فوضعتُ عليه المجموعة القصصية التي في يدي.. قرأتُ عناوين صحيفة «الندوة» التي وزعتها علينا المضيفة:

«العمالة الوافدة تُغطي شوارع مكة، وتُهجِّر ملايين الريالات للخارج .. المليك يدعم برنامج مكافحة الملاريا باليمن .. ضبط مزورين وشبكة تمرير مكالمات وأغذية فاسدة في مداهمة بالعاصمة المقدسة .. لماذا خسر الأهلي (السعودي) ثلاث نهائيات متوالية؟»..

لا أدري كيف تعرّفتُ على الدكتور «ماهر رشاد»!

تعرّفتُ عليه عام 1995م تقريبا.

كنتُ قد أصدرتُ ديواني الخامس، وأراد نادي الرياض الأدبي أن يُقيم لمناقشته أمسية من تلك الأمسيات الأدبية التي يقيمها يوم الثلاثاء. حضر بعض النقاد السعوديين، ومن الأساتذة المصريين المقيمين في الرياض، حضر بعض أساتذة النقد الذين يُدرسون في جامعتي الإمام والملك سعود، وفي كلية المعلمين.

كانت ندوة جميلة، ألقيتُ فيها خمس قصائد، وقدم أحد الأساتذة دراسة عن مفهوم التناص في شعري، وآخر عن الحوار ومغزاه في شعري، وكان من النتائج العجيبة التي توصّل إليها أن الحوار يكثر في شعري، لأني انطوائي منعزل، أقيم في الرياض (ومن قبل أقمتُ في طرابلس وصنعاء: في طرابلس سنة، وفي صنعاء أمضيتُ فصلا دراسيا) بمفردي، بعيدا عن أسرتي!، قبل أن تموت المرحومة زوجتي! (ولم يستطع الدارس أن يربط بين الحوار في شعري ومسرحياتي الشعرية؛ حيث إن لي ثلاث مسرحيات شعرية، مُثّلت إحداها على مسرح «الطليعة» بمصر، وهو مسرح تجريبي!!).

يومها فرح بي الأساتذة المصريون: عبد الحميد إبراهيم، وحلمي القاعود، وصابر عبد الدايم، وحامد أبو أحمد، ومحمد علي داود، ويحيى عبد الدايم، وعبده زايد.

اعتبرت هذه الأمسية احتفالية أكثر مما اعتبرتها تكريما لشعري المتواضع، الذي هو في أغلبه سياسي، ويشتبك مع قضايا الواقع، فيناقش تخلف العرب والمسلمين، وتكالب الغير علينا، وهذا ما يعيبه عليّ بعض النقاد، ويعدونني ناثرا . أو خطيبا . ضللتُ الطريق إلى الشعر!

في هذه الليلة، أبصرتُ رجلا طوالا، يميل وجهه إلى الشحوب، يمسك بكلتا يديه كراسة زرقاء يُدوّن فيها ملاحظاته كمتابع للشعر وللنقاش الذي يدور.. كأنه يحتضن طفلا صغيرا يخاف عليه!!، لكنه لم يُشارك في مناقشة شعري.

في نهاية الأمسية تعرّف عليّ، وعرّفني بنفسه أنه متابع لخطواتي الشعرية، وأنه قرأ لي بعض القصائد في «الثقافة الجديدة» و«إبداع» بمصر، و«المنتدى» بالإمارات، و«البيان» بالكويت، ودعاني ليلتها . وكنا في الحادية عشرة مساءً في ليلة من ليالي ديسمبر . لتناول الشاي معا في شقته في شارع الخزّان.

من حواري معه عرفت أنه أستاذ للصحافة في جامعة الملك سعود، وأنه لا يميل إلى فنون الأدب، لكنه يُحب قراءة المحاورات الفكرية، ويكتفي في القراءة الأدبية بمتابعة بعض الأشعار التي تروقه، وبعض الأسماء، وأنا منها، وأنه لا يميل للقصة أو المسرحية أو فنون السرد عموما.

في يوم الجمعة التالي كنت معزوما على الغداء عنده، وكانت الجمعة الأخيرة من شعبان، وعلمتُ يومها أنه متزوج من سيدة فاضلة، زميلة له (تعمل أستاذا مشاركا في الجامعة نفسها)، تزوّجها من خمسة وعشرين عاما، وأنجب ولدين.. تخرجا من كليتي العلوم والطب، وبنتا ستتخرّج هذا العام من كلية الهندسة.

أخبرني أنه من أسرة عريقة بالإسكندرية، تعمل بالتجارة، وقال لي إنه يمتلك مزرعة كبيرة في المنوفية . يُقدر ثمنها بسبعة ملايين من الجنيهات . يعمل فيها أبناء شقيقته الوحيدة.

وفي لقاء تال سألتني زوجته الفاضلة «الدكتورة حنان» لماذا لا تتزوّج وأنت في الثانية والخمسين، والمرحومة زوجتك قد رحلت منذ عامين؟ وقالت إنها تُريد مني أن أتزوّج لأعيش حياتي وأستمتع بها، وأجد زوجة تهتمّ بي، بعد أن تخرّج ولداي من كلية الطب، وسافر أكبرهما (وليد) إلى بريطانيا وتزوج فتاة إنجليزية، لم يُعقب منها بعد، بينما (هاشم) مازال ينتظر أن يجد فتاة تقنعه بجدوى الزواج!!

حاولتُ أن أشرح لها أن السعادة ليست في الزواج فحسب، وإنما في أشياء أخرى، منها طاعة الله، والتوافق بين الإنسان وحياته التي يحياها، وكيفية الاستمتاع بالوقت، فلم أفلح.

بل فوجئتُ بسؤال الدكتورة حنان لي:

- هل تعرف الشاعرة سماح صبري؟

- طبعا.. وأعرف أنها شقيقتك.

وقفزت إلى ذهني صورة زميلتي «سماح صبري» في آداب القاهرة من خمسة وثلاثين عاما، كانت تسبقني بعامين، وكانت تُشاركنا في ندوات الجمعية الأدبية بمبنى المدينة الجامعية، التي كانت تُقام مساء كل أحد، ويشرف عليها دكتوران شابان، هما الدكتور عبد المنعم تليمة والدكتور طه وادي (وقد صارا أستاذين جهيرين بعد ذلك)، وألقيتُ فيها أولى نماذجي الشعرية قبل أن أصدر ديواني الأول..

- إنها أختي.

عرفتُ منها أنها لم تتزوّج، وأنها في الخامسة والخمسين.

حينما رأيتها في إجازة رمضان وجدتُ أن ملامحها القديمة لم تتغير، وأن شعرها الكستنائي مازال محتفظا

بنضارته وحيويته (وتساءلت يومها - بيني وبين نفسي - لماذا لم ترتد الحجاب؟)، وعلمتُ أنها صارت رئيسة قسم في وزارة التربية والتعليم حيث كانت تعمل، ولم يتغير فيها شيء (كانت درست معنا السنة التمهيدية للماجستير، لكن لظروف لا أعلمها لم تتم دراستها العليا).

حينما سألتُ عنها جاري في الرياض، بعد العيد: مصطفى العبد، وهو محاسب مسن في بنك الرياض، وهو كما يقول من نفس شارعهم في كفر الشيخ، قال: معلوماتي قليلة، وهي سيدة فاضلة، وجميلة، ولقد حصلت على الماجستير فقط - في النحو - منذ عدة أعوام. وهي من أسرة مُكافحة، فقد كانت أمها ربة بيت فاضلة معروفة بتقواها وصلاحها، وكان أبوها مدرسا للعلوم بمدرسة المساعي المشكورة الثانوية بشبين الكوم، ولم ينجب إلا ابنتيه: الأستاذة «سماح» والدكتورة «حنان»، وأنه قد أمضى حياته في المنوفية، ولم يعد إلى كفر الشيخ إلا بعد تقاعده.

وأضاف وكأنه يختم شهادته:

- إنها ست.. (واستدرك) بنت حلال .. طيبة .. في حالها .. مكسورة الجناح، رغم مرحها البادي، وابتسامتها العريضة!

وقلتُ له ما أعرفه عنها، وهو أنها كانت من النابهات، ولا أدري لماذا لم تُكمل دراساتها العالية وبخاصة أنها لم تتزوّج!

....

قالت الدكتورة حنان، وكأنها تتكلم عن امرأة أخرى، ليست أختها:

- ليتك تتزوجها!

قلتُ وأنا نصف متحير:

- يبدو أن ذلك سيكون!، فقد أصبحتُ أضيق بوحدتي!

زغردت كلماتها:

- أنا أغبطك عليها.. إنها جميلة، ورشيقة، وتستطيع أن تعيش معك هنا في الرياض!

(3)

كدتُ أرسل قصتي (أو مشكلتي مع ابني هاشم) لعبد الوهاب مُطاوع ليكتب لي الحل في «بريد الجمعة» بصحيفة «الأهرام»، وتتلخّص في أني مررتُ خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة بعدة تطورات جعلتني لا أستطيع أخذ القرار الصحيح في أي مشكل، ومنها:

1-لم يحضر وليد لزيارتنا منذ عامين؛ يكتفي بمهاتفته القصيرة . من لندن . لي كل يومين، أو ثلاثة أيام.

2-انني تزوجتُ سماح، ولكني طلقتُها بعد شهرين، حيث لم نستطع التكامل، أو التأقلم معا.

3-ابني هاشم الذي كان من أكثر المعارضين لزواجي من «سماح»، وقع في شراك «شادية ماهر» ابنة أختها (الدكتورة حنان)، وكان من المستحيل أن أوافق على زواجه منها.

4-لم يصبر الولد على رفضي، ولم يُحاول استرضائي، وكان قد تعاقد للعمل في مستشفى في جدة، فتزوجها في الصيف الماضي، بعد عودتي من الرياض إلى القاهرة، دون أن أحضر حفل خطبته، ولم أحضر ليلة عرسه التي أقامها في فندق كبير!.

5-لم أسافر إلى القاهرة هذا العام الدراسي.. لا في إجازة عيد الفطر، ولا في إجازة عيد الأضحى.. أنزل لمن؟ .. ولد في لندن، والآخر في جدة (... وتزوج دون مشيئتي!).. وقال: لا تحملني ثمن فشل زواجك من خالتها!.. هذه هي البنت الوحيدة التي أعجبتني، وإذا لم أتزوجها فلن أتزوّج غيرها!

.. لكني اخترتُ أن أجنب الأستاذ عبد الوهاب مُطاوع حل مشكلتي، التي قد تبدو تافهة، ولذا لم أرسلها له.

(4)

هاهي أضواء جدة تبدو من نافذة الطائرة..

هل ستسعد شادية وهاشم بلقائي..

أم أن الجيل الجديد لا يهتم؟

سأسعدُ بلقائهما..

ستظل تركض يا فريد.. من شارع إلى شارع.. ومن أفق إلى آخر؟..

هاهو هاشم وزوجته يأخذانك في سيارتهما الخاصة.. وهاشم يحوطك بيده، وأنت تجلس بجواره، وهي (شادية) في المقعد الخلفي.. تنظر في المرآة فتجد وجهها طافحا بالسرور.

ويُدمدم في أعماقك سؤال، تكاد تسمع نبراته:

كيف وقفت . ذات يوم . في وجه المحبين؟!!

لاحظتَ انتفاخ بطن شادية..

هل تسألهما عن قدوم الحفيد الأول لك، أم تنتظر حتى يأتي الكلام في سياقِه العادي؟..

تُلاحظ أن سرعة السيارة تتجاوز الـ 120 كيلا، فتقول في حنو بالغ:

. قلل السرعة، حتى نستمتع بهذه اللحظات الجميلة في شوارع جدة، وحتى لا تؤذي حفيدي.

وتملأ الضحكة الكبيرة وجه «شادية»..

الرياض 2004/9/7م

بيت خالتي

إنه يشك في نظراتي التي تطلب منه دائما الصمت .. وألا يتكلم .. حتى لا يهدم العش!

هل أطلب منه المغفرة وأنا لم أعمل ما يستوجبُ الغضب .. أو الشك!

أعبر أصص الزهر مصحوبة بكواكبَ معتمة في الأفق .. امشي نحو بساتين خضراء، معلقة على الحائط، في لوحة فاتنة .. تتابعها عيناه في عتمة ما بعد الغروب .. إنه لا يُشاركني في ترحالي الأسبوعي إلى بيت خالتي، في رحلة تصحبني فيها خفافيش الذكريات وسود الأماني!

ما بيننا سور عال لم تستطع الكلمات أن تقتحمه!

نظرة حزينة تبدو في عينيْ «رشاد» وهو يراني عائدة .. يرنو إلى الأفق دائما مغمضا عينيه كأنها يحلم، أو يخاف أن ترى الناس حلمه الأسود أو توجسه الدائم الذي لا يُفارقه.

بعطف وشفقة يمسك الطفل . طفلنا . في يده، ويخشى أن يلفظ الكلمة التي تعتمل في صدره، أو يستحضرها من قباب الوحشة والشك التي لا تُغلق أبوابها.

فإذا عدتُ من بيت خالتي الوحيدة، ورأى تهدّج صوتي ورعشة أطرافي وأنا أحكي له عن مرضها الذي يُقعدها، وانتظارها الأسبوعي لي .. وكأنني نسمة الحياة التي تنتظرها .. يهز رأسه ساكتا، وأقرأ في عينيه حزنا يصحبه الشك، فيكادُ يصرخُ فيّ:

. إنك لا تزورين خالتك إلا لكيْ تريْ حبيبك القديم ..

ابن خالتك .. الدكتور حسام.

...

لكنه لا يستطيعُ أن يقولها.

... كان كاذبا دائما في تخيلاته التي لم أناقشه فيها، ولم يُفض بها إليّ .. فهو في حاجة إلى ما يؤكد شكوكه التي أخشى أن تقتل ما بنيناه بيننا من احترام وود على امتداد ما يقرب من عقد من الزمن، وهاهو ينسق في صمت أبجدية شكوكه يوما فيوما لترسم بعد ذلك عريضة اتهام!

هل يمتلك شجاعة الروح ويقول لي ما يحزنه من زيارتي لبيت خالتي؟

وهل أمتلك أنا شجاعة القلب، وأقول له ذات مرة: إن «الدكتور حسام» يُقيم في الزقازيق، وليس مع والدته في «القلعة»، ولم يأت لزيارة أمه إلا مرتين أو ثلاثا لم أره خلالها.

لماذا يظل «رشاد» رغم زواجنا من ثمانية أعوام وإنجابنا طفلا منذ خمس سنوات .. يظل واقفا أمام السور العالي الذي شيّده من شكوكه وأوهامه؟

ما بين الصخور تتحرّك يا رشاد ..

صحيح أنا لم أتزوجك إلا بعد سفر «حسام» إلى أمريكا، ليحصل على الدكتوراه في التربية .. وقول أمه . خالتي . ذات صباح غائم لي: «إنها سمعت من صديق له أنه . الغادر . تزوّج أمريكية حتى يأخذ الجنسية، وكم كانت تريد أن تفرح بزواج وحيدها من ابنة أختها»، وكان آخر خطاب منه لي قد مرّ عليه شهران!!

هل كانت خالتي تتآمر على حبنا؟

وفي لحظة تفكير عميق . تزوّجتُ من «رشاد» .. زميلي المهندس في الإدارة الهندسية بالجيزة، وزميلي في الدراسة في هندسة عين شمس.

وعاد «الدكتور حسام» من أمريكا، ليعيش عزبا، وليعمل مدرسا في كلية التربية بالزقازيق، ويكاد يُقاطع والدته لأنها كانت السبب في أن يفقد حبيبته . أنا، حبيبته

«سناء» . التي كم حلم بها، حينما رددت إشاعة موهومة من زميل كاذب!!

كم فكرت في عدم زيارة خالتي العجوز، التي أضحت على مشارف السبعين!

وكم تتعبُني رحلتي الأسبوعية لها من ميدان الجيزة إلى «القلعة»، وسط زحام قاتل أصبحتُ لا أطيقه!

هل ستعيش طويلا ليتجدد شك «رشاد» الصامت في مسلكي؟

وهل سأظل على زياراتي المتكررة لها مساء كل خميس؟ ..

إنها مريضة! ..

هل كنتُ مجرمة يوم تمنيتُ موتها من أسبوعين، حتى أرتاح من شكوك «رشاد» ونظراته الحزينة الصامتة!

لقد تزوجت رشادا، عن اقتناع فكري .. وجاء الحب والمودة بعد عشرته اللطيفة، وإنسانيته الدّافقة .. وليس في قلبي أو عقلي غيره .. فلماذا يُدمِّرُ الشك حياته؟

و«حسام» . ابن خالتي . لم أره منذ ثلاث سنوات، ولا يُشكل في حياتي غير هاجس حب قديم .. نسيتُهُ بالفعل .. فلماذا يُصر «رشاد» على تذكيري به؟.

لماذا لا أصطحبُ رشادا معي لزيارة خالتي يوم الخميس القادم، وكل خميس بعده؟ ..

رغم أني لم أفعلها طوال السنوات السبع الماضية، فسأصحبه مع طفلي «هاني» .. ليرى الواقع الحزين، وحالتها المرضية المتردية!!

لن أترك «رشادا» في رحلاته الطويلة: في شروده الدائم، أو في شكه الذي لا ينتهي.

من الخميس القادم سأجعله يُضمِّد جراح قلبه!

الرياض 25/1/2000م

أم داليا

هل أنا أم .. أم قاتلة محترفة؟

أنا الأستاذة الجامعية التي أدرس علم النفس، وأرصد السلوك البشري وأحلله.

استيقظتُ ذات صباح لأجد نفسي في مأزق رهيب .. فضيحة لا يمكن معايشتها! ..

ابنتي الوحيدة داليا .. التي ترمّلتُ عليها قبل ولادتها، فقد عاش أبوها . ضابط المظلات . سبعة أشهر معي، قبل أن يموت بسكتة قلبية .. وهو في عز شبابه.

فاجأتني ابنتي المهندسة الشابة، التي تخرجت منذ عامين وعملت في الإدارة الهندسية . في مجلس المدينة . منذ خمسة أشهر، حين قالت: إنها حملت سفاحا من الشيطان!

استدعيتُ عمّها «سعفان» شيخ قرية الصوالح لنتدبّر فيما فعلت الكلبة، فذبحها أمامي، وقفل عائدا إلى قريته!

لم يره أحد في مجيئه أو ذهابه، فاتهمني الجميع أنني القاتلة! ..

لم أجد أدنى رغبة في دفع جريمة القتل عني ..

قلتُ:

. تهمة لا أدفعها، وشرف لا أدّعيه!

حينما حكم القاضي عليّ بسبعة أعوام سجنا تحدّرت دمعتان من عيني:

دمعة إشفاق على ابنتي التي لم أعايشها بما فيه الكفاية فسقطت، ودمعة حزن .. لأني لم أر الشيطان مقيّدا ذبيحا! ...

الرياض 2002/1/5م

ثلاث قصص قصيرة جداً

من التغريبة اليمانية

1-الرحلة الأولى

هذه هي رحلتي الأولى إلى قرية "بني علي" من قرى «الوصاب السافل».
السيارة تكاد تغرق في سيول زبيد ما بين "الجراحي" و"الأحد"!
هواء الليل البارد في منتصف سبتمبر يدير رأسي.. إلى كل ذبالة مصباح في القرى التي نمر عليها مُعلقة على قمم الجبال.
أرتدي نظارتي الطبية.
أحدق بشدة.
لعلي ألمح. عبر رشات الندى. الذي يتسلل من النافذة
وجها نحيلا، طيبا..
كوجه أمي.

الرياض 2004/10/7م

2-الباذنجانة الصغيرة

الباذنجانة الصغيرة البيضاء
معلقة في يد الطفل الصغيرة
ويده الثانية
متشبثة بفستان أمه.
تمشي معتدلة كمهرة برية تتخطر.
وتجري خُطاه الصغيرة، حتى يظل ممسكا بذيلها!
تجري خطاه الصغيرة.. وتجري
لا يلتفت إلى الباذنجانة التي قضم منها قضمة واحدة..
.. هوت إلى الأرض مباغتة
لم يُحس بها، ولم يلتفت إليها!
تنتظرها النمال. التي لم تتناول إفطارها بعد.
في هذا الشُعب المشمس، بين قريتين.

الرياض 2004/10/7م

3-حياة!

أجلس في غرفتي الملحقة بالمدرسة، فوق السرير الذي أعدتُ ربط أركانه وقاعدته بحبال بلاستيكية، اشتريتها من بقالة «محمد الصغير».

أطالع مجلة «اليوم السابع»: الموضوعات السياسية الساخنة أولا، ثم السينما، ثم بقية الفنون.

ها هو يوم جليدي آخر.

درجة الحرارة لا تتعدى الصفر.

العنكبوت المدد بين ضلفة الباب المعتمة، والركن .. يُخيل لي . مع التصدع الباقي من أثر الزلزال . أنه يُشبه خطيبا يصرخُ في الناس، وترتفع يداه كخطيب سياسي يُضاحك الجماهير!

أتنحنح..

لا أسمعُ إلا صوتي!!

الرياض 2004/10/7م



«مجنون أحلام»

الرؤية والتشكيل الفني

أ.د. خليل أبو ذياب

هذه مجموعة أخرى من الأقاصيص القصيرة أبدعها قاص مفنّ متمرس بكتابة القصة القصيرة، حاذق لتقنياتها، حريص على توفيرها فيما يبدع من أقاصيص بشكل متميز ولافت .. ذلكم هو الشاعر الأديب الأريب الدكتور حسين علي محمد ..

وعلى الرغم من وقفاتنا عند مجموعة من إبداعاته الفذة فإننا نحس تقصيرا وإجحافا بكثير من إبداعاته التي ما يزال في النفس شوق عارم للقيام بجولات فيها نتحسس شيئا من مظاهرها الإبداعية المتميزة .. ولا يسعني إلا أن أدعو الله أن يحقق لي شيئا من تلك الطموحات والآمال في وقت قريب فتكون لنا وقفات أخرى عند تلك الإبداعات .. كما أدعو الأدباء والدارسين إلى الاهتمام بتلك الإبداعات وأنا زعيم بأنهم واجدون فيها إن شاء الله ما يشبع رغبات النفس ويحقق غايات البحث .. عسى أن نوفيه شيئا من حقه علينا.

واستجابة لهذه الرغبة جاءت سياحتنا في هذه المجموعة التي أسماها «مجنون أحلام» مشايعا لمجانين العشاق من الشعراء العذريين الذين جنى عليهم الهوى وذهب بعقولهم العشق، وقضى عليهم بالجنون الذي لا شفاء منه ..

وهكذا غدا صاحبنا الذي وطئت قدماه أرض اليمن السعيد، والتقت عيناه بعيني "أحلام" اليمنية واخترقت سهام ألحاظها شغاف قلبه "مجنون أحلام" لينخرط في زمرة المجانين من مشاهير العشاق أمثال "مجنون ليلى" و"مجنون لبنى".

أما وقفتنا مع هذه المجموعة فستتناول أقاصيصها من زاويتيها الموضوعية الفكرية والفنية، أو الرؤية الموضوعية والأداء الفني الذي وفره لها أو التشكيل الفني لها؛ آملين أن نقدم تصورا مناسبا ومعقولا ومجردا من الهوى لهذه المجموعة ..

أولا: الرؤية الموضوعية للمجموعة:

ربما يكون من نافلة القول التأكيد على صلة الأديب القاص الحميمة بأقاصيصه وبروزه كشخصية رئيسة ومحورية من شخوصها، سواء أكان هو قطب الأحداث فيها ومحورها الرئيس، أم كان هو الراوي الذي تطوع لسرد تلك الأحداث وروايتها وتصوير شخوصها ومعالجة تلك المواقف التي تفاعل معها بصورة أو بأخرى .. وهذا يعني في تقديرنا أن القاص لم يغب عن أحداث أقاصيصه، ولم يكن مجرد راصد لها من الخارج، بل مشارك فيها وصانع لبعضها على نحو ما سنتبين في هذه المقالة ..

وقارئ المجموعة يتبين أن القاص كان جدّ حريص على رصد طائفة من الأزمات المتنوعة التي أخذت بتلابيب أبطاله وشخوصه سواء أكان هو أحدهم، أم كان راويا لها .. وهي أزمات متنوعة انفجرت من مواقف متباينة ذاتية داخلية وغيرية خارجية، عاطفية وسياسية واجتماعية وغيرها .. وسنحاول هنا رصد تلك الأزمات كاشفين عن منهج القاص في تصويرها وتتبع مظاهرها ..

أولا: الأزمات العاطفية:

1-أزمة البطل / القاص:

وقبل الكشف عن هذه الأزمات الخاصة وأبعادها التي

عاشها القاص نودّ التنبيه على أننا لا نجزم بانتماء هذه الأزمات كلها إلى القاص نفسه ونسبتها جميعا إليه واعتباره الشخصية الرئيسة أو الأولى فيها مكتفين بالتأكيد على صلته الحميمة ببعضها لكونه الشخصية الأولى أو البطل فيها، وبصلته الحميمة بشخوصها الرئيسة والثانوية في الأقاصيص الأخرى التي سرد أحداثها دون أن يمتّ إلى تلك الأحداث بصلة ما .. أي أنه كان فيها مجرد راو سارد لأحداث الآخرين، ومشارك لهم وجدانيا ..

ولما لم يمكن الفصل بالنسبة لنا نحن الدارسين بين ما يخص القاص منها وما سرده الراوي مما يخصّ الآخرين، وعدم حرصنا على تحديد ذلك دفعا للحرج ومنعا من التدخل في خصوصيات من غير اللائق التحري عنها .. ومن جهة ثانية لإيماننا أن القاص عندما يبدع العمل القصصي لا يكون بالضرورة خاصا به وحده لأنه يستقي من تجاربه وتجارب الآخرين، فضلا عن الجزء الخيالي غير الواقعي الذي يحرص عليه ويساهم في بناء العمل ويعلي من شأنه .. ومن جهة أخرى لكونها لا تضيف إلى الدراسة فائدة تذكر لأن التركيز ينصب دائما على تشكيل العمل الإبداعي وتوافر تقنياته الأساسية .. لذلك اعتمدنا تحديد ما يخص القاص بما يرويه بضمير المتكلم، وإن كان هذا لا يحمل القطع أو الجزم بنسبتها إليه .. كما أن الرواية بضمير الغائب الآخر لا تعني بالضرورة انتماءها إلى الآخر إذ إن القاص يمكن أن يختفي وراء ذلك الضمير ليسرد ما وقع له لسبب أو لآخر، كما يمكن أن يسوق ما حدث له بضمير الغائب لحاجة في نفسه لا نعلمها إلا إذا أفصح عنها .. وخروجا من هذا المأزق اعتمدنا ما يخص القاص بما روى بضمير المتكلم وليكن ما يكون ولأنه لا يستطيع أن يقاضينا ما دام تطوع بنسبة ذلك إلى نفسه .. ولكنه إذا أبى ذلك فنحن مستعدون للاعتذار!

ومن هنا فإننا نودّ عرض تلك الأزمات وفق ظهورها وأهميتها في تشكيل أقاصيصه وبناء أحداثها مبتدئين بما

يخصه منها .. وربما كانت أبرز الأزمات العاطفية التي طرحها القاص، وقد تكون جزءا من خصوصياته ولا نريد أن نجزم بذلك، تلك الأزمة العاطفية التي طرحتها قصته الرائعة "مجنون أحلام"، والتي استأثرت بعنوان المجموعة بحق وجدارة .. والتي عرضت لطرف من حياة القاص العملية في اليمن عندما كان يقوم بالتدريس في بعض مناطقها "الوصاب السافل" .. على إن كل الإشارات في القصة قد تدل أو تؤكد أننا نتعامل مع القاص نفسه مباشرة مما جعله لا يختفي وراء ضمير الغائب الذي انصرف عنه وهو يسرد أحداثها إلى ضمير المتكلم الذي يلقانا في كثير من أقاصيص المجموعة مما قد يؤكد صلته بها وانتماءها إليه كما سنرى .. ومهما يكن فهذه الأزمة العاطفية التي عاشها القاص كانت نتيجة أو أثرا للعادات والتقاليد التي تسود بيئة الحبيبة اليمنية، إضافة إلى الظروف الخاصة بها والتي كانت تشكل عائقا صلبا يحول دون لقاء الحبيبين وإنهاء أزمتهما العاطفية، وإن لم يكشف القاص عن شيء من ذلك، بل إنه توقف في أحداث القصة عند "الجراحي" التي توقف الصالون عندها لينزل الخالة ومن ثم انطلاقه إلى الحديدة .. حيث ترك القاص "أحلام" تسرح في أحلامها الوردية الآتية وهي تتأمل مظاهر الجمال في الطبيعة الساحرة .. ويبدو أن القاص هو الذي بادر بقطع تلك العلاقة وإنهائها بصورة مدمرة لأحلام "أحلام" .. وهذا قد يدفعنا إلى الزعم بأنه أسمى فتاته "أحلام" لما جسدته من أحلام داعبت خياله ووجدانه في علاقته العاطفية بتلك الفتاة اليمنية في مرحلة مهمة وحاسمة في حياته .. وعليه، فهو لم يكن مجنون فتاة اسمها "أحلام"، بل كان مجنون أحلام لم تتحقق!

وإذا ألقينا نظرة عجلى على أحداث القصة ألفيناها تستغرق زهاء أسبوعين من أواخر شعبان إلى منتصف رمضان .. منذ أن رأى عبد السلام المدرس المصري "أحلام" اليمنية، وتغلغلت في أعماق قلبه وتعلق بها، فقد رآها يوم

الخميس خارجة من بيتها تريد البئر لتستقي "لتملأ من مائه "دابتين" على حمارها الضرير .. ثم التقاها يوم الجمعة عند الغروب في طريقه إلى بقالة "قايد" لشراء بعض الأغراض بعد عودته من بيت الشيخ الأهدل ورافقته وأفضت إليه بطرف من سيرتها وحياتها .. ويكشف عن إعجابه البالغ بها بل عشقه الهائل لها لما آنس من جمالها وسحرها وعذوبة صوتها .. وكان عبده . ابن قايد قد رآهما معا فكشف الأمر أمام التلاميذ في المدرسة ويقدم له معلومات أخرى عنها .. وتتواصل الأحداث ويعرف رغبة خالتها بتزويجها لابن خالها الطبيب العائد من موسكو .. مما أحدث له صدمة قاسية .. حتى إذا زارت المدرسة لتسأله عن ابن عمها الذي كان يدرسه دار بينهما حديث عن زواجها من ابن خالها وبينت له أنها تريد إكمال دراساتها العليا .. ثم تسأله عن خطته ويتفقان على مرافقتها وخالتها إلى الحديدة فصنعاء في صالونهم الخاص .. وبدأت الرحلة . وهي البداية التي جعلها للقصة . وحوارات متنوعة عن دراساتها ودراساته وسعادته بموافقتها على الزواج منه .. وآمال عريضة باسمة وأحلام حلوة توشك أن تتحقق بعد أن غادرتهما الخالة في "الجراحي" ليواصلا الطريق إلى "الحديدة" ..

وهكذا أحبّ المدرس المصري "عبد السلام" الفتاة اليمنية "أحلام" التي تمكنت من قلبه واستولت على أحاسيسه ومشاعره فقرر خطبتها؛ ولكنه حسب للتقاليد حسابا دفعه إلى سؤال الشيخ محمد الأهدل (ماجستير في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) عن إمكانية الزواج من اليمنية فأشار إلى شرط الكفاءة في الزواج .. ولما كان يملك وثيقة الكفاءة تم الاتفاق بينه وبينها .. ويصحبنا القاص في رحلة برفقة صاحبته إلى الحديدة فصنعاء في صالونهم الخاص، كما يخبرنا عن عزمها على مواصلة دراستها في القاهرة .. وكانت حيرته لأنها لم تبحث معه أمر ارتباطهما معا ولم تكلمه عن بعثتها القادمة .. وربما كان في

ذلك إشارة إلى عدم إتمام الزواج بينهما دون أن يفصح عن سببه والذي قد يكون لتوقف القاص في سرد أحداث قصته عند ا لجراحي حيث غادرتهما خالتها ليواصلا رحلتهما إلى الحديدة فصنعاء: "فما زالت مدينة الحديدة بعيدة، والأرض مترامية، والخطى التي غادرت عتمة الوصاب تتأمل في لحظات تليق ببداية جديدة"!

وهكذا ظلت الأزمة العاطفية للقاص قائمة ولم يتمكن من التخلص منها أو إنهائها نهاية مناسبة .. وهكذا جاءت قصة "مجنون أحلام" لتجسد أزمة البطل الراوي الذي كان يبحث عن الحب في أرض اليمن وتمثل له في صورة رائعة مع "أحلام"، ولكنه برغم جرأته في مكاشفتها واستطلاع رأيها وأخذ موافقتها كان الخوف من العاقبة يتقحمّه ويكاد يخط لهما نهاية حزينة لولا ما كان يملأ نفسه من أمل ببداية جديدة تجمع شمل الحبيبين في بلاد بعيدة .. وربما كانت هناك أسباب أخرى لم يفصح عنها القاص لسبب أو لآخر ..

ويطرح القاص - ربما - طرفا آخر أو مظهرا آخر لأزمته العاطفية أو تجربته الوجدانية مع ابنة خالته "صباح" في القصة الرابعة "اللهم أخزك يا شيطان" عندما أوشكا على السقوط في حمأة الفاحشة بتدبير من ضرّتها " د/ سناء " زوج المهندس صالح .. وعاش لحظات قاسية في محاسبة نفسية حادة على ما اجتاحه من رغبة جارفة وشهوة عارمة توشك أن تقطع الشعرة الدقيقة الفاصلة بين الثبات والسقوط .. ولكن سرعان ما اكتشفا ، أو تنبّها لخطة سناء لإسقاطهما حتى يخلو الجو لها مع زوجها بعد أن تحققت غايته بإنجاب صباح "صالح الصغير".

فانكفأ يستغفر الله ويلعن الشيطان الذي كان يسوقه بعنف نحو الهاوية ليسقطه وابنة خالته التي كان أمينا ووصيا عليها من قبل خالته ..

على أن مأساة صباح أو أزمتها النفسية جاءت من خلال فقدانها حقوقها الشرعية كزوجة للمهندس صالح وسوء

معاملته وضربها "سناء" لها واعتبارها مجرد خادمة .. بل بلغ به الأمر أن يضربها على وجهها أمام ضيوفهما ـ زميلات سناء من جامعة الملك سعود اللاتي كن في ضيافتها، وكانت صباح الخادمة التي تقدم لهن الأكل .. وقد فاض بها الكيل ولم تعد تطيق تلك التصرفات السيئة فاندفعت تقول لزوجها: "إنني زوجتك يا باشمهندس أيضا ولست خادمتك أنت وهي .. وأنت لست رجلا ما دمت تعاملني بهذه الطريقة"!.

وهكذا تفاقمت أزمة صباح حتى كادت تسقطها، كما كانت أزمة "سمير" بغياب زوجته وبعده عنها وإحساسه الحاد بالجوع الجنسي قد بلغت حدا كاد يدفعه إلى السقوط والتردي في مستنقع الرذيلة لولا أن تداركتهما رحمة الله!

وتبرز أزمة القاص العاطفية مرة أخرى في ا لقصة الثانية "برق في خريف" التي يسترجع فيها ذكريات تجربة حب أخرى عاشها مع "نادية حمدي" التي انقضى عليها ثلاثة عقود .. وكانت روابط الحب قد توطدت بينهما منذ أن عزمت على إخراج إحدى مسرحياته الفصحى "الثائر" التي ضاعت في بورسعيد إبان الانفتاح السعيد .. وافترق الحبيبان، وظلت الحبيبة تنتظر فارسها عشر سنوات ولكنه لم يأت فغيرت مجرى حياتها وتخلت كارهة عن وعدها له .. ثم التقى الحبيبان بعد هذه العقود مصادفة في محطة مصر ليستقلا قطار إسكندرية، وليستعيدا آخر ذكريات الحب الضائع واللقاء الذي لم يجئ، وانتظارها إياه عشر سنوات قبل أن تتصالح مع واقعها وتلحق بقطار العمر قبل أن يخلفها وحيدة في صحراء قاحلة فتتزوج وتنجب ابنتيها، وتلومه على غيابه الطويل حتى ملت الانتظار .. ويعقد العزم بعد أن لقيها على ألا يتخلى عنها أبدا .. ولكن الأوان كان قد فات .. فما إن توقف القطار في محطة الرمل حتى ترجلت لتجد ابنتيها في انتظارها وتعرفه عليهما .. ومن غير أن تودعه انطلقت معهما، وخلفته ليكر راجعا إلى شقته الواسعة ليجد نفسه وحيدا من جديد!!

وهكذا عاد القاص العاشق ليعاني مرارة الوحدة وعذاب الشوق بعد أن خيّل إليه أنه على عتبات حياة جديدة مع الحبيبة الغائبة، حياة مليئة بالحب والسعادة التي حرم منها ثلاثة عقود كاملة، وأن الحياة ابتسمت له من جديد بعد تلك السنين الطويلة!

وتتجسد أزمة القاص العاطفية مرة أخرى في قصة "لن يكلم نفسه في الشارع" /17؛ وهي قصة أخرى يستدعي فيها ذكريات قديمة غبر عليها خمسة وثلاثون عاما مع زميلة له في الجامعة "سماح صبري" والتي وصفها بأنها كانت إحدى النابهات الناشطات في الجمعية الأدبية بالمدينة الجامعية إبان المرحلة الجامعية .. ومع أنه لم تنشأ بينهما في تلك الفترة علاقة ما إلا أن تذكره لها الآن وعدم تغير ملامحها عندما رآها واحتفاظها بمظاهر جمالها، إضافة إلى استمرار عزوبيته بعد وفاة زوجته وإحساسه الحاد بالوحدة .. كل أولئك ضيق المسافة بينه وبينها برغم تقدمها عليه في السن بزهاء سنتين، فوافق على الارتباط بها بمجرد أن عرضت عليه شقيقتها اقتراح الزواج منها .. وتم الزواج بسرعة، ولكنه لم يعمر أكثر من شهرين وتم الانفصال لعدم التأقلم والتوافق بينهما ..

وإذا كانت هذه الأقاصيص تطرح الأزمات العاطفية الخاصة بالقاص / الراوي، فهناك أقاصيص أخرى حرص فيها الراوي على رصد بعض الأزمات العاطفية الخاصة بشخوصه كما في القصة 15 "بلا دموع" التي سردت حكاية حب كبير عاشه بطلاها "حسام" و"هند" .. "فقد كانا في مدرسة واحدة منذ المرحلة الابتدائية فالإعدادية فالثانوية، وكانا يتنافسان دائما على المركز الأول، والتحقا بكلية التجارة، وهاهما قد تعيّنا معيدين منذ ثلاثة أعوام .. كانت حكاية حبهما على كل لسان منذ المرحلة الثانوية" .. ويبدو أن أزمة هذين الحبيبين كانت بسبب ضيق ذات اليد وعدم

توافر المادة اللازمة لاستقرارهما .. أو قل انعدام المستوى المعيشي المناسب الذي يرضي "هند" ويقنعها، مما دفعها إلى فسخ الخطوبة والتطلع إلى الارتباط بابن خالتها "محسن" العائد بالدكتوراه من بعثة دراسية إلى أمريكا .. وراح حسام يسترجع أطرافا من ذكريات لقاءاته الأخيرة بهند وفتور العلاقة بينهما وكثرة حديثها عن محسن .. حتى إذا همّ بالانصراف ناولته أم هند علبة كان قدمها لخطيبته .. وهنا نزع دبلته الفضية ووضعها في المظروف ثم ألصقه ووضعه في جيبه ثم انصرف بلا دموع ..

وهكذا قابل البطل تصرفات خطيبته بهدوء متصالحا مع مأساته، أو قل أزمته العاطفية التي فجرتها الحبيبة الهاجرة التي لم يقنعها مستواه المعيشي المتواضع ..

وإذا كانت هذه الأزمة السابقة تمثل أزمة الحبيب المهجور، فقد حملت القصة الثامنة عشرة "بيت خالتي" أزمة الحبيبة التي كانت تعاني من عذاب الشك المدمر الذي يجتاح نفس زوجها، والذي تناسى الحب الجارف الذي ربط بينهما، فضلا عن القناعة الفكرية التي أسفرت عن ارتباطهما. ولم يستطع هذا وتلك أن يكنس أوضار الشك الذي يملأ نفس الزوج حتى كاد أن يعصف بحبهما ويدمر حياتهما الزوجية، ويهدم العش الذي بنياه معا وملآه بالحب والود .. وهكذا عاش الزوج "رشاد" هذه الأزمة النفسية الطاحنة، وفرضها على زوجته المحبة "سناء"، ولم يستطع تجاوز أسوار الشك التي شيدها من وساوسه وأوهامه السوداء من حول العش الهادئ، ولم يقو على طرد خفافيش الذكريات وسود الأماني التي كانت تعجّ في صدر الزوجة المحبة، تصحبها كلما عزمت على زيارة خالتها المريضة .. ويكشف القاص عن أسباب هذه الأزمة الخانقة المدمرة عندما يسترجع طرفا من ذكريات "سناء" قبل الزواج عندما كانت على علاقة بابن خالتها حسام وكانت تحبه وشاع هذا الحب بين الناس .. ولكن أمه / خالتها تآمرت على حبهما وفرقت بينهما .. ثم ارتبطت برشاد

عن قناعة وتوافق .. ومع ذلك ظلت تصل خالتها وتزورها كل أسبوع محتملة مشاق المواصلات ووعثاء السفر ، ومرهقة بأمواج الشك المدمر الذي يجتاح نفس رشاد، ويوشك أن يدمر عشها .. وهنا تقرر أن تمارس خطوة عملية لعلاج زوجها من أزمته النفسية المدمرة وتخليصه من عقدة الشك المستكنة في أعماق نفسه فتقرر اصطحابه معها لزيارة خالتها ليراها على الطبيعة ويتعرف حقيقة سلوكيات زوجته ، فيضمد عندئذ جراح نفسه ويشفي آلام قلبه ..

وهكذا عالج القاص أزمة الشك التي عانى منها البطل وتألمت منها البطلة قبل أن يعصف بالحب الذي ربط بينهما، ويدمر العش الذي بنياه على الحب والمودة والرحمة!

وتطرح الأقصوصة الرابعة عشرة "النظر إلى الخلف" ذكريات حب قديم مرّ عليها أكثر من ثلاثين سنة .. (بالمناسبة ، القاص مغرى بسرد الذكريات التي مرت عليها عقود متطاولة من الزمان .. ويبدو أنه كان يجد فيها رصيدا ضخما من الأحداث تختزنه عبقريته القصصية ويستخرج منها ما يشاء حينما يشاء ليبني عليها أقاصيصه .. وهذا ما أشاع عنده ظاهرة الاسترجاع في كثير من أقاصيصه) .. ففي هذه القصة ينشر القاص أو يسترجع ذكريات حب قديم بين زميلين قديمين في الجامعة ثم افترقا بعد أن رفض والد الحبيبة "سميرة" لواء الشرطة ابن الفلاح الصغير تحت ضغط الطبقية البغيضة المتسلطة آنذاك .. ويلتقي الحبيبان مصادفة عجيبة بعد هذه السنين أمام عمارة توشك أن تشهد امتداد العلاقة القديمة بين الآباء في الأبناء حيث كان الحبيبان القديمان، كل على حدة في زيارة لمكتب هندسي واحد يضم "طلحة" ابن الدكتور محمود الأنصاري، وشيرين ابنة "سميرة" ليبدءا . ربما . مشوار حب جديد لم يكمله الآباء تحت قهر الظروف الاجتماعية وما كان يسودها من إحساس طبقي بغيض ..

وإذا كانت البطلة "سميرة" لم تكشف عنة استمرارية

العلاقة القديمة، ولم تبد لهفتها وشوقها، ولم تعلن حبها القديم، فإن البطل لم يقو على كتمان ذلك الحب القديم وتلك العلاقة الحميمة التي يبدو أنها كانت مستكنة في أعماقه، وتحتل من قلبه ووجدانه مساحة واسعة كادت تدفعه إلى أن يقول: "كان نفسي أشوفك يا سميرة من زمان"! ولكنه كتمها في فمه طبعا خوفا من زوجته الدكتورة "منى" الأستاذة بكلية الزراعة والتي كانت ترافقه آنذاك، وربما كانت تحصي عليه حركاته وسكناته، وإن لم يشر القاص إلى شيء من ذلك ربما لتسير الأمور على خير وبدون تعقيد والحاجة إلى حبكة جديدة ولحظة تنوير أخرى هو في غنى عنها..

وتحمل الأقصوصة الخامسة عشرة "شرخ آخر في المرآة" هموم البطلة التي بلغت الرابعة والأربعين من عمرها، وتوفي زوجها منذ عام .. وقد كثر خاطبوها من الأطباء والصيادلة، ولكنها رفضتهم لكونهم متزوجين ولهم أبناء .. وتضاعفت همومها عندما رأت بوادر الشيب تغزو فوديها وتنتشر في شعرها الكستنائي الطويل الذي ورثه عن أمها، لتفسد منظره الجميل .. ويمضي القاص مع "نورا" مستعرضا طرفا من سيرتها العلمية والعملية: دراستها وعملها وزواجها وموت زوجها وتزاحم الخاطبين لها ورغبتها في الزواج لإنجاب طفل تحلم به .. ولكنها لم تحظ برجل عزب .. حتى إذا يئست منه تنازلت عن هذه الرغبة وتهيّأت لاستقبال آخر الخاطبين .. وهنا تجسدت لها صورة زوجها في المرآة ممددا على السرير كأنها تحمل تهديدا لها إن هي أقدمت على هذه الخطوة ، لتمثل شرخا آخر يضاف إلى شرخها القديم .. وعندئذ لم تجد غير ابتسامة واسعة ارتسمت على ثغرها وهي تتحسس استداراتها وانحناءاتها في انتظار رجل يقدر تلك المفاتن، ويزيح تلك الصورة الكابية، ويرأب صدع المرآة ويصلح شروخها قبل أن تتفاقم ليعيد لها الأمل من جديد!

وتطرح الأقصوصة السابعة "أحزان نادية" وهمومها التي فجرتها في نفسها ذكريات زوجها الذي هجرها بعد تجربة حب عارم طويل ليتزوج من تلميذته الصغيرة اللعوب .. ويستعرض القاص أطرافا من حياتها مركزا على مأساتها مع زوجها وفشلها في الحفاظ عليه .. ويرصدها القاص عند مجيئها إلى النادي الذي اعتادت ارتياده بصحبة زوجها أيام الصفاء والحب والود لتستعيد شيئا من ذكريات الماضي الجميل .. وتفاجأ بقدوم زوجها برفقة زوجته الأخرى التي هجرها من أجلها .. حتى إذا رأت شعره الأبيض تذكرت آخر مرة صبغته له وهو يتهيّأ للزواج من تلميذته "المهرجة المسخوطة"، والتي وجدتها معه في شقتها عند عودتها من زيارة أمها .. وكان وقع الصدمة بالغ الشدة والقسوة على نفسها جعلتها تقضي بضعة أشهر في العلاج منها بعد أن طلقها .. ويتعانق الماضي والواقع وهي تهمّ أن تحاسبه على تصرفاته القذرة وسلوكياته الحقيرة، ولكنها تسقط على الأرض على بعد خطوات منه، فينظر إليها بلا اكتراث وفي تجاهل تام وكأنه لا يعرفها ..

وفي الأقصوصة الحادية عشرة "رحلة أخرى" يرصد القاص بطلته وهي تخطو آخر خطواتها في طريق الخطيئة والسقوط، وتتأهب لتبدأ الخطوة الأولى في درب الهداية والنور..

ويرصد القاص أزمة "صابرين" / الملكة " كما كانوا يطلقون عليها عندما كانت تمارس الرقص في أحد الملاهي الليلية .. حتى إذا بدأت الرقص على أنغام "إنت عمري" اجتاحها الغثيان وفقدت توازنها وتعثرت خطواتها، ولم تعد تشعر بلذة أو جمال في الموسيقى التي اعتادت أن ترقص عليها برغبة جارفة وشوق كبير .. ويكشف القاص عن دوافع هذا التحول المفاجئ المثير وهو اقتحام صورة شقيقتها التي ماتت أمس وصورة أبيها الذي رحل منذ خمس سنوات وصورة أمها التي فقدتها وهي طفلة .. كل هذه الذكريات الحزينة

اقتحمت نفسها وجوها في الملهى وغمرتها بنور رباني هائل أضاء لها أعماق نفسها وهداها إلى طريق الخلاص والهدى .. وهكذا كانت رحلة البطلة الأخرى التي هيّأتها لها طيوف شقيقتها وأبيها وهما يستحثانها للقدوم إلى الجنة الحقيقية لا جنة ذلك الملهى الخبيث الماخور "ملهى ليالي الجنة" كما يزعمون!

وتستدعي ازمة "صابرين" هذه أزمة أخرى جسدتها أقصوصة "ومضة الرحيل" /13 التي تحكي قصة خطيئة تردى فيها شخصيتا الأقصوصة "فريد" و"هند" .. وقد رصدهما القاص وهما يتهيّآن لتنفيذ القصاص فيهما ، وقد التفّ من حولهما الرجال والنساء والأطفال الأبرياء الذين أخذوا يرشقونهما بصغار الحصى تعبيرا عن رفضهم لخطيئتهم .. أما الرجال، فقد وجدوا في هذا المشهد تعبيرا عن استقامتهم المزعومة، وأما النساء فلم يعتدن الابتسام ببراءة أبدا .. حتى إذا " أومض السيف رأيا عصافير صغيرة تحط فوق رأسيهما، وسمعا صوت أناشيد بعيدة ترحب بالملكين الطاهرين"!!

وقد هدف القاص الفاضل هنا إلى تأصيل مبدأ "التطهّر" من الخطيئة برغم ما قد يملأ نفوس الآخرين من شماتة وسخرية وحياتهم من تظاهر كاذب ونفاق زائف حقير .. بيد أن القاص الفاضل هنا وضعنا أمام إشكاليات عدة .. فمن جهة جعل العقوبة مسؤولية "الراعي" وتنفذ عن طريقه وبوساطته .. ومعروف أن "الراعي" لقب كنسي مسيحي؛ ويبدو أن القاص أراد بهذا اللقب ما حدده الحديث الشريف "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"! ذلك أنا لا نعلم من أمر تنفيذ الكنيسة مثل تلك العقوبة التي يتردى فيها الخاطئون على نحو ما هو مقرر في الشريعة الإسلامية أولا لما ورد عن المسيح عليه السلام من قوله: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"، ولما هو معروف في "كرسي

الاعتراف" الذي يخلصهم من خطاياهم ويحقق لهم التطهر بمجرد الاعتراف للراعي أو القسيس الموكل بذلك، فضلا عن صكوك الغفران التي شاعت في القرون الوسطى .. وثمة إشكال آخر هو إقامة الحد على أولئك الخاطئين بالسيف .. إذ المعروف أن الجلد للعازبين، والرمي بالحجارة حتى الموت للمتزوجين ومن هم في حكمهم .. على أن القاص كان يمكنه استغلال هذه الحادثة لتكريس مبدأ إقامة الحدود وتنفيذها في الشريعة الإسلامية مفيدا من قصة تطهير "ماعز" الصحابي العظيم، وتناثر قطرات من دمائهما على بعض الصحابة الحاضرين دفعته إلى لعنهما فأنكر الرسول (ﷺ) ذلك وعقب بقوله : " إنه - إنها تابت توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم " . أو كما قال .. وأغلب الظن أن هذا هو ما أراد القاص تكريسه في هذه القصة في قوله " إنهما رأيا ... وسمعا .... ".

ثم جاءت اقصوصة "أم داليا" / 19 تطرح أزمة شائعة أو قضية اجتماعية ذائعة في الأوساط الريفية والبدوية خاصة وما يسودها من عادات وتقاليد وأعراف تتمثل في ضرورة أو فرض الحفاظ على الشرف وحماية العرض من كل من يعتدي عليه بالدم كما قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

وكنا ننتظر من القاص الفاضل أن يقدم في الأقصوصة رؤية باعتبارها قضية شائعة ولها أبعاد اجتماعية ودينية خطيرة .. ولكنه فيما يبدو التزم جانب الإبداع القصصي ونأى عن التنظير أو طرح الرؤى لمجافاته لهذا الإبداع، ولأن موضع ذلك التنظير الدراسات والبحوث الاجتماعية والدينية وغيرها .. ولما كنا بصدد دراسة هذه المجموعة القصصية فنظن أنه يسمح لنا بطرح مثل تلك الرؤية هنا فنقول: تعددت الآراء وتنوعت التفسيرات لهذا

السلوك الاجتماعي سواء أكانت تفسيرات دينية أم اجتماعية عرفية .. والحقيقة أن الدين الإسلامي، وإن كان يرفض الخطيئة ويعاقب عليها وشرع لها الحدود المناسبة، لا يعطي الحق في تنفيذه للناس، بل هو حق السلطة الدينية الحاكمة، شأنها شأن الثأر مثلا حيث ردّ الأمر فيه إلى الحاكم أو السلطة، ولا يجيز لأهل الدم تولي ثأرهم بأيديهم، وأن يبادروه بأنفسهم، ويمارسوه بطرائقهم الخاصة .. فكذلك جريمة الزنا لا يجوز للناس أن يتولوا القصاص فيها بأنفسهم وبطرائقهم الخاصة لأن ذلك مسؤولية الحاكم أو السلطة الدينية الحاكمة التي تقوم بتنفيذ القصاص أو العقوبة المحددة في الخاطئين .. ولكن لما غابت السلطة الدينية الحاكمة، وأسند الأمر إلى السلطة الدنيوية المدنية الحاكمة بالقوانين والدساتير الوضعية ضاعت الحقوق، واضطرب حبل الأمن وأتاحت الفرصة للناس . لذوي الدم المهدور والعرض المنتهك . يقدمون على تنفيذ العقوبة المناسبة التي تقررها الأعراف والتقاليد والعادات ..

وفي ضوء الدعوات المعاصرة لتحرير المرأة كما يزعمون وضرورة إعطائها حقوقها الكاملة والتي يروج لها المتفرنجون وأدعياء التحضر والتمدن، تواجه التقاليد والأعراف والعادات أزمات حادة وهي تفتقد سلطتها، وتسلب حقوقها المقدسة وهيمنتها السابقة لأن هذه الدعوات التحررية تعتبرها جريمة لا تغتفر!

فهل ينتصر المتفرنجون وأدعياء الحضارة والمدنية، أم تنتصر الأعراف والعادات والتقاليد، أم يستعيد الشرع الإسلامي العظيم سلطته وينفذ الحدود التي شرعها الله سبحانه ؟؟!! الله أعلم!

الأزمات السياسية أو المواقف السياسية في المجموعة:

تشكل الأزمات السياسية أو المواقف السياسية في المجموعة وما يسودها من إحباط المظهر الرئيس للبطل الراوي حيث تجسدت تلك الأزمات أو المواقف في أربع قصص

هي : 3 ، 8 ، 12، 16 .. ففي هذه الأقاصيص حرص القاص على تصوير البطل المأزوم سياسيا أو قل المقهور تحت ضغوط الواقع المتردي .. وحاول رصد الأزمات السياسية التي اعترضت أبطاله .. ففي القصة الثالثة "اصطياد الوهم" يظهر البطل في صورة كاتب سياسي مارس الكتابة ضد الحكومات ثلاثين سنة قضى معظمها في السجون .. حتى إذا كتب مسرحية تاريخية عن صلاح الدين الأيوبي عند دخوله القدس، وتشير إلى اللحظة الراهنة حظيت بالقبول وباركتها السلطة واستدعته للتشاور معه في أمر تقديمها على المسرح القومي وطبعها في كتاب .. ومع أنه لم يشد مباشرة بخطوة السادات إلا أن السلطة جيّرتها لحسابها وحظيت بالرضا والقبول .. ومع ذلك نجده يبرر سلوك السلطة، أو ربما انحرافه عن منهجه بترديد مقولات السلطة التي تبرر بها خطوة السلام أو الاستسلام حين يقول: "الناس سئمت الحروب وتريد أن تستمتع بالحياة ". ولكن صاحبته أو قل ضميره رفض هذا التبرير فقالت: "هل تصدق أن السلام الذليل مع إسرائيل سيأتينا بالمن والسلوى كما يقول زعيمك؟".

وهكذا يتأزم الموقف بين البطل الكاتب المسرحي وبين البطلة بسبب التغير الذي طرأ على تفكيره فغيّر موقفه السياسي المعروف بالرفض، وتتباين مواقفهما السياسية .. ويبدو لنا أن الكاتب الراوي ربما كانت تجتاحه عاصفة الانتصار للكاتب المسرحي المأزوم المنكفئ وهو يعلن عن بدء كتابته أو رغبته في كتابة مسرحيته الجديدة التي سيجعل كل أبطالها من النساء وتدور حول صداقة شيطانية بين مخرجة سينمائية وامرأة أعمال .. متوجسا من موقف السلطة إزاءها مع أنها لا تنتهج الأسلوب السياسي ولا تعادي السلطة بل تبتعد كثيرا عن دائرتها المثيرة .. وفي تجسيد القاص لأزمة البطل هنا نجده يتبنى موقف الرفض وينطق البطلة بآرائه الرافضة لسلوكيات التحول في موقف البطل

بالرغم من تعاطفه معه وحملته على رفاقه الذين لم يؤازروه سياسيا وأدبيا حتى لو كان ثمن هذا التحول في نظرهم باهظا مع أنه لم يقصد ذلك حقيقة .. ومع ذلك فالقاص لم يعفه من تلك الجريرة وهو يبرر خطوة السلام المزعوم ..

وفي الأقصوصة الثامنة "عكرمة يرفع السلاح" يرصد القاص أزمة الإنسان العربي المعاصر وما يعاني من قهر وذل وهوان وانحطاط بسبب تكالب الآخر عليه في هذا الزمن الرديء الذي فرض عليه التخلي عن أمجاده القديمة .. فقد جسدت القصة الإنسان العربي المأزوم "عكرمة" وقد تكالب عليه المرجفون في المدينة يذيعون خبر نهايته المفجعة حيث غرقت كل مراكبه ولم يبق له إلا الموت .. ويرفض عكرمة الرمز العربي الأصيل هذه الأراجيف ويصر على المقاومة ويأبى الاستسلام للغريب القادم لتدمير أمجاده التليدة .. "تدثرت بالصمت وأنا أرى أولاد القردة يرسمون على أغلفة كتب الفتوح عار حاضرنا الذي نرسمه ملونا ويأخذ عندنا يا للفجيعة شكل النبيذ في أنهار تجري بفخرنا الذي تسطره القصائد العصماء بينما يرسمونه متوجا بالعار والخزي والسقوط"!

ويواصل عكرمة الرمز العربي الأبيّ مقاومته للمرجفين ورفض سيطرة الغريب وتسلطه على أعراض الأباة وتلطيخها بالعار والذل .. ويتشبث عكرمة بهذه الأمجاد وهو يتوجه صوب النساء العربيات ممجدا حفاظهن على أعراضهن وصونهن من دنس الغريب عبر هذا الرمز المستوحى من بيئة الخيول العراب حيث وصفهن بالخيل الصافنات الرافضات للبغل رمز الغريب الدخيل: "إن البغال لا تتزوج الصافنات"!

كما رصد القاص تلك الصافنات وهن يستصرخن عكرمة الرمز العربي الأبي أو الجواد العربي الأصيل الواعد بالإنقاذ عبر هاتيك النداءات الحزينة التي تتلجلج في صدورهن:

"أيها المستجير من الرمضاء بالنار ..
لا تترك السف .. لا تخلع الدرع ..
أنت في قيامتك الكبرى رايتك مرفوعة للريح
والغريب مدجج بالخراب .. وخطواتك لن تقتلعها الريح
لك موت يجدر بشهيد .. وللغريب حياة مجللة بالعار
لك أن تعيش طويلا .. أنت والنسور في الأعالي " ...
ولن تقتلع الريح خطوتك يا عكرمة!!!

وتواصل الصافنات استغاثتهن بعكرمة . ابن الأرض . مطمئنات إلى نصره ودحره الغريب وقهره: "يا ابن الأرض، ها هي الريح بجانبك .. تدفق الدماء في الجسد .. وتزهو الريح لأنك نبتها الذي لم ينحن .. وتقول: ستقتلع وحش الغابة الذي يهددك بالمحو، ستنتصر على الغريب، فلا تخف .. وهاهي الخيول تقول: إنها أحبتك منذ رأتك ..تحاول أنت تضمك لصدرها بقوة بعد أن كنت قد ابتعدت زمنا .. تقول: هل يصعد قاربك يا عكرمة فوق بحار الشوق المشتاقة!

وهكذا رفض الرمز العربي الأبي ما أشاعه المرجفون في المدينة مؤكدا أن مراكبه لم تغرق كطلها، فقد بقي منها مركب أخير سيمخر به عباب القهر والذل ليقضي على الغريب الدخيل!!

وهكذا جاءت هذه القصة تنحو منحى رمزيا يجسد مرارة الواقع العربي المتهافت، وانهزام الإنسان العربي في زمن السقوط .. وقد عزف القاص فيها على أوتار الغيرة والحمية التي تدفع الإنسان العربي المرهق بالذل والهوان إلى الرفض وا لانفلات من واقعه المفجع المرير مادام يملك المركب الأخير!

وهكذا جاء "عكرمة" رمز الإنسان العربي الأبي المتأهب للمقاومة، المؤهل للنصر أو الشهادة، الحريص على إنقاذ الشرف العربي من دنس الغريب، المستجيب لنداءات المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .. "الصافنات" لإنقاذهن

وحمايتهن من السقوط في مستنقع الذل والهوان، مستنقع البغل / الغريب / العدو المحتل!

وفي القصة الثانية عشرة "في المدى قنديل يضيء" يطرح القاص أزمة إنسان وطني انخرط في الشيوعية لما توقع فيها من الخير لأمته المسحوقة، ولقي من ألوان الاضطهاد ما لا يطاق .. وكان أحد أفراد مجموعة أخذ بأيديهم إلى دروب النضال وعلمهم كيف يحلمون بالتقدم والغد .. حتى إذا أدرك رفاقه عقم انتمائهم الشيوعي وجرّ عليهم أذى السلطة شايعوها وانخرطوا في حزب الثورة "الاتحاد الاشتراكي" فتبوّأوا المناصب، وتمكنوا من المشاركة في حكم ثوري وطني لأول مرة حلموا به منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية بل منذ ثورة 1919 .. اما هو "الأستاذ"، فقد رفض هذا الأسلوب وثبت على معارضة السلطة وآثر العودة إلى طنطا ليدير مدرسة إعدادية "واختار أن يكون قنديلا بعيدا يضيء دربا ما من دروب الوطن" .. بل إن أحباءه وعارفيه يصفونه بأنه "شمس تضيء المدى في تجرد وإخلاص نادرين"!

ويرصده القاص في لحظة كشف للغشاوة التي غطت على عيون الآخرين وهو يقدم نصا مسرحيا بعنوان "لماذا انهزمنا؟"، وهي تتحدث عن نكبة حزيران . يونيه 67 .. وفي محاولة للبعد عن التصريح المثير للمساءلة والمحاسبة يقترح القاص الراوي تبديله ليصبح "الأستاذ وتلميذه" .. ولكن النص لقي معارضة شديدة من رفاقه القدامى لظنهم أنه ما زال على شيوعيته برغم كفرانه بها وتخليه عنها لما وجد من حرص المتاجرين بها على تحقيق مصالحهم الخاصة وتمسكهم بالمناصب المكتسبة .. ويركز القاص على استقلالية البطل وانفصاله عن الحزب الشيوعي مشيدا بأثر جماعة الإخوان المسلمين في نفسه حيث أوقدوا فيه شمعة الإيمان من جديد، وأعادوا له الأمل في الحياة في ظلال العقيدة .. ويجتمع الرفاق القدامى لقراءة النص المقدم من

أستاذهم أو رفيقهم القديم، ولكنهم يرفضونه بلا سبب وبدون قراءة، لرفضه الانضمام إلى الجوقة ولكشفه انتهازيتهم الحقيرة!

أما النص فيدور حول ثوريين قديمين يتاجران بهموم الناس، ويلوكان كلمة "الاشتراكية" بإدمان غريب، ويبيعان الكلام في سوق أشبه ما تكون بسوق نخاسة عصري"!

وهكذا جاء النص ليفضح هذه الطائفة الانتهازية المتسلقة الباحثة عن المناصب لتحقيق رغباتها الشخصية ومصالحها الخاصة ..

ودارت القصة السادسة عشرة "تلك الليلة" في ذات الفلك السياسي، وجاءت لتطرح أزمة سجين سياسي معارض للسلطة في زمن السادات، ولم يطق البقاء في السجن فهرب .. وتجاذبته هموم متباينة، واجتاحته تساؤلات عديدة وانهالت عليه خواطر متشابكة يتعلق بعضها بصديقه الناصري السجين الرافض لفكرة الهروب من السجن العقيمة لكونها فاشلة وستنتهي بالعودة إلى السجن .. ولأن الوطن كله عبارة عن سجن كبير كما سيقرر!

ويسترجع السجين الهارب بعض الذكريات مع رفاقه السجناء وحواراتهم .. ولعل أبرز مخالفاته لسياسة السادات ذهابه للقدس وتبرير أحد مشايعيه بقوله: "إن شعبك أيها الناصري الحالم تعب من القتال والحرب ويريد أن يعيش"! وهو ذات التبرير الذي رأيناه في القصة السابقة .. ويعلن الرفض لهذا الرأي بقوله: "ولكن إسرائيل لن تتركنا"!

ويتذكر حوارا آخر دار بينه وبين مؤيد للسادات حول الخطاب الذي ألقاه في القدس ويجعل من أمريكا اللاعب الأول الذي يملك أوراق اللعبة في المنطقة .. ويعقب ساخرا بالدعوة إلى تحويل خطاب السادات إلى نص مسرحي يجعل مصر "حسناء تباع في سوق الرقيق بدولارات مضروبة"! وعندما كاشف رفيقه الذي كان اعتقل في انتفاضة الخبز بذلك كشف له أن من أفضى إليه بذلك مخابرات للسلطة ..

على أن هذا الرفيق يؤكد له أن القدس لن تعود أبدا بينما هو يؤكد عودتها كما أعادها صلاح الدين من قبل .. ويتواصل الحوار بينهما عارضا موقفين متناقضين: موقف ناصري مثبط من ثوار الزمن الأخير الذين يسجنون ويضيعون أعمارهم في السجن بلا قضية وبلا أفق"!

ثم يعرض قضية سجين شيوعي آخر كان يحاوره حول الزمن الآتي الجميل الذي يحلم به ، ثم أخرج من جيبه قصيدة يتحدث فيها عن ذلك العالم الذي ينتظره بعد خروجه من السجن يقول فيها: وأنا أيضا .. أحلم بالزمن القادم

يبتلع الفقاعات الطافية على الوجه .. وتصبح قمم الأشياء

سنصير السادة ..

سأصير رئيسا عصريا .. يشرب كأس الويسكي في الحانة

ثم يعود سريعا ..

ليضاجع زوج رئيس الوزراء!!

هكذا كانت الأحلام الوردية التي يحلم بها ذلك السجين الشيوعي في الزمن القادم .. وإذا كان هذا ما سيفعله هذا الرئيس الجديد المطحون الخارج من السجن مع زوج رئيس الوزراء .. فماذا سيفعل رئيس الوزراء مع أزواج الوزراء الآخرين؟! لا شك في أنها ستكون ملحمة من نوع آخر.

ويكر البطل راجعا إلى ليلة القبض عليه عندما فوجئ بضابط وشرطيين يطلب منه التوجه إلى "لاظوغلي" لسؤاله سؤالين سريعين ثم يعود .. وبدلا من الذهاب في هذا الطريق الطويل توجهوا به فورا إلى السجن ليلتقي صديقه القديم وليقضي معه ستة أشهر مليئة بالحوار والشجن والعذاب .. ويواصل السجين الهارب سيره ليبلغ القرية وليفجع بالواقع الذي كانت تعيشه أسرته ليخرج بنتيجة كابية سوداء لا تقل سوءا عما وجده وعاشه في السجن هي أن "الخارج ليس

أقلّ سوءا من السجن: فأمه مصابة بجلطة منذ شهرين ولا تعي ما يدور حولها .. وزوجة أخيه ماتت منذ عشرين يوما .. ولم تمض لحظات حتى كانت عربة الشرطة تمزق صافرتها الصمت لتعيده إلى السجن قبل أن يستمتع بهروبه .. وهو يقول : "يبدو أن أسوار السجن الكبير تمتدّ بعرض الوطن وطوله"!

وهكذا يتحول الوطن في ضوء مأساة هذا السجين السياسي إلى سجن كبير يقمع الرافضين المعارضين للسلطة ، ويحرمهم من إعلان آرائهم أو التبشير بها في زمن القهر والاستبداد .. ومن وراء أسوار ذلك السجن الكبير تتجسد أزمات السجناء السياسيين الأحرار، وتتفاقم معاناتهم.

=الموقف السياسي للكاتب:

إذا كانت هذه بعض مظاهر موقف القاص الفاضل من السجناء السياسيين، أو قل الموقف السياسي لأبطاله وشخوصه كما تخيله أو عاشه بصورة من الصور، فما هي أبعاد موقفه السياسي هو وهو المعروف بغرامه وشغفه بذلك وحرصه على التعبير عنه في كل مناسبة؟!

وفي الحق إنه ليس غريبا على القاص بروز الجانب السياسي في هذه المجموعة أو في غيرها لأنه كما يقول البطل في قصة «لن يُكلم نفسه في الشارع»: "إن أغلب شعره سياسي ويشتبك مع قضايا الواقع فيناقش تخلف العرب والمسلمين، وتكالب الغير علينا"؛ وهو موقف - في القصة - عابه عليه بعض النقاد فعدوه ناثرا أو خطيبا ضل طريقه إلى الشعر .. ونحن نخالف الناقد في رأيه هذا لإيماننا برسالة الشاعر التي تجعله لصيقا بقضايا مجتمعه وأمته، قادرا على التفاعل معها قدرته على التفاعل مع قضاياه الذاتية ومشكلاته النفسية والعاطفية الخاصة ..

وإذا حاولنا التعرف على أبعاد الموقف السياسي للكاتب الفاضل في هذه المجموعة "مجنون أحلام" نتبين أنه كان يتبنى موقفا سياسيا محددا حيث كان "ناصري الاتجاه"؛

وقد بدت مظاهر هذا الاتجاه في فترة مبكرة ربما مع بدايات الحكم الناصري في منتصف الخمسينات؛ فقد أعلن في الأقصوصة الثانية عشرة "في المدى قنديل يضيء" تحوّل البطل مع مجموعة من الرفاق الشيوعيين إلى الحزب الناصري الوحيد الحاكم "الاتحاد الاشتراكي" معترضا على سلوك أستاذهم الذي رفض الانخراط في حزب السلطة لكونه كما يقول: "إنه لا حزب ولا يحزنون .. إنه شيء بلا لون ولا طعم ولا رائحة"!

وهو / الأستاذ هنا ينطلق من نقطة التحول عن الشيوعية لممارسة منهج جديد لتربية النشء إيمانا منه . ربما . بضرورة البدء للإصلاح الحقيقي المناسب بالنشء الجديد وتأهيلهم للانطلاق لممارسة المنهج السياسي الكبير القادر على تقويم الأمة وتحقيق آمالها في الحرية والسلام!

كذلك كانت نكبة يونيه 67 " القاتلة" كما يصفها القاص، نقطة بارزة في اتجاهه السياسي؛ فبالرغم مما خلفت تلك النكبة من آثار بالغة السوء والسواد في الأمة العربية جمعاء، فقد ظل خلافا للكثيرين على انتمائه الناصري وإيمانه بقدرة عبد الناصر على مواصلة الكفاح لتحرير الأرض المصرية والعربية من قبضة إسرائيل، يشهد لذلك وصفه لبيان مارس الذي أذاعه عبد الناصر بعد الهزيمة ببضعة أشهر بأنه "خطط فيه بجرأة وطموح للمستقبل"!

وهذه القصة نفسها تعرض لفريقين متناقضين أو قل لمرحلتين متباينتين في حياة فريق واحد من الرفاق الشيوعيين الذين استطاعت طائفة منهم أن يتحولوا عن الشيوعية وينضموا إلى الجوقة الغوغائية المؤيدة للثورة ويحققوا كثيرا من المنافع والمكاسب؛ وطائفة أخرى رفضت هذا التحول السياسي، ورفض الانضمام إلى تلك الجوقة وقنعت بتحول من نوع آخر تمثل في تعرية الطائفة الأولى الانتهازية من خلال مسرحيته "لماذا انهزمنا" أو "الأستاذ

وتلميذه" وهو العنوان الذي اقترحه عليه تلميذه الراوي .. والذي ظل فيما يبدو برغم انتمائه إلى الاتحاد الاشتراكي وإيمانه بالناصرية يؤمن في دخيلة نفسه بمنهج الأستاذ السياسي الرافض للغوغائية، والحريص على كشف وفضح هؤلاء الانتهازيين المتسلقين!! وهذا ما جعل الراوي القاص في القصة يتزيا بمسوح المدافع عن الأستاذ، الرافض لأساليب أصحابه أو تلاميذ الأستاذ الانتهازية الرخيصة!

على اننا نجد هذا الأستاذ أو رئيسهم يتحول من دائرة النقد والتعرية لتلاميذه المتسلقين الانتهازيين عندما وجد عقم محاولاته ويأسه من تحقيق شيء ما، إلى دائرة عملية أخرى قد تكون أفيد وأجدى من محاولاته السابقة وهو يقرر العودة إلى طنطا لإنشاء مدرسة إعدادية لتعليم أبناء هذا الجيل ما يمكن أن يعود عليهم وعلى الأمة بالنفع والفائدة بعد أن يئس من المشروع الشيوعي الذي أصّله في نفوس تلاميذه الانتهازيين ..

وفي القصة الثالثة "اصطياد الوهم" يجسد القاص موقفه السياسي في أعقاب اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل التي وقعها السادات وبيجن، ثم أعقبها بزيارة القدس عشية عيد الأضحى .. وقد كان هذا الحدث موضع رفض وتنديد من الناصريين وغيرهم من أحزاب أو اتجاهات المعارضة .. ويظهر موقف القاص من أحد الانتهازيين وهو يتخلى عن موقفه الرافض بصورة ملطفة جدا، أو قل . وهذا رأيي وربما رأي القاص . أنه لم يتخلّ عن موقفه، وأن النجمة ليلى زهدي . لم تفطن لذلك عندما اتهمته بالتخلي أو الردة .. وقد كان رده عليها واقعيا وهو يقرر أنه لم يكتب مسرحيته للإشادة بموقف السادات وزيارته للقدس، وإنما كتب مسرحية تاريخية تشير إلى اللحظة الراهنة فجيّرتها السلطة الحاكمة لمصلحتها واستدعته للتشاور في عرضها وتقديمها على المسرح القومي وطبعها كذلك في كتاب .. وإذن فما ذنب الأستاذ وما جريرته؟!

بيد أن المواقف التي رصدها القاص لبطلها هذا "صبري عثمان" تؤكد تخاذله وتحوله أو نسيانه / تناسيه مواقفه الرافضة السابقة حيث دخل السجن في عهدي فاروق وعبد الناصر، كما أخذه السادات ستة عشر شهرا في أحداث خبز يناير سنة 1977م .. بل إنه يبرر هذا التحول بقوله: "كتبت ثلاثين عاما ضد الحكومات فما التفت لي أحد إلا السجانين، وكتبت مسرحية تاريخية تشير إلى اللحظة التي نعيشها فاستدعتني الرئاسة للتشاور في تقديمها على المسرح القومي وطبعها في كتاب"!

كما يتجلى ذلك التحول في مشايعة أنصار السلام الرخيص أو الاستسلام الحقير وهو يبرر مواقف السلطة في قوله "الناس سئمت الحروب وتريد أن تستمتع بالحياة .." حتى إذا رفضت صاحبته هذا التبرير مؤكدة أن السلام الذليل مع إسرائيل سيأتينا بالمن والسلوى كما يقول زعيمك"؛ وهذا التبرير ذاته يلقانا عند "صبري" آخر هو "صبري عبده" . ولعلهما شخص واحد اختلف اسم أبويهما لاختلاف القصتين (قارن موقف سجين "تلك الليلة" إزاء هذا الرأي الذي تبنّاه الناصري المتخاذل، أو الانتهازي المثبّط في قوله: "ولكن إسرائيل لن تتركنا"(؟!) فانبرى يكشف عن موقفه الذليل أو المتذلل "أريد أن أعيش وأن تعرض مسرحيتي في المسرح القومي". ويبرر سلوكه هذا الذي لم تتفهمه تلك النجمة بأنها لم تذق مرارة السجون ..

كذلك كانت فرصة عرض مسرحيته على المسرح القومي خاصة نقطة دافعة ومجلية لذلك التحول بعد أن كتب أكثر من عشر مسرحيات لم تعرض منها واحدة ..

ويقف هذا الموقف الرافض لتحول الكاتب صديق آخر له هو الناقد محي الدين فوزي الذي قال له في لهجة حقيرة وشتائم رخيصة: "لم أعجب لتقديم مسرحيتك على المسرح القومي من إخراج المخرج الكبير سالم النقاش ، فالسلطة

تكافئ أحبابها" ..

ويأتي رده متساوقا مع رده على ليلى: ماذا فعلتم أيها الأوغاد لي ولمسرحي المخطوط على امتداد خمسة وعشرين عاما؛ وأنت أيها الناقد الكبير قرأت مسرحياتي ولم تكتب عنها كلمة واحدة لأنها لم تقدم للناس كما كنت تقول" ..

هكذا كانت عقدة البطل وهو يتحول من الرفض إلى المشايعة والتأييد ويركب موجة السلطة وإن لم يظهر هذا التحول في صورة مباشرة وصريحة تدفع رفاقه السابقين إلى نقده وتجريمه بحق .

كذلك يبدو انتماء القاص إلى الناصرية وإيمانه بها في محاولة لإعلان الرفض للساداتية في قصة "تلك الليلة" /16 التي قص فيها حدث هروبه الفاشل من السجن وهو ما أكده صديقه الناصري "صبري عبده" في تعقيبه على هروبه: "عثمان خائب وغرير .. لماذا هرب؟ سيجيئون به من تحت الأرض ويعذبونه".

وفي المقطع الأول الذي جعل عنوانه "الزعماء يغيرون الجغرافيا" أدار حوارا بينه وبين رفيقه صبري عبده أكد له فيه أنه لن يستطيع أن يغير التاريخ لأن "الزعماء وحدهم هم الذين يغيرون التاريخ والجغرافيا أيضا".. ويفسر ذلك قائلا: "حينما ينتصرون يغيرون التاريخ، وحينما يتركون أرضهم لأعدائهم كما فعل زعماء العرب في حرب 1967 فهم يغيرون الجغرافيا" . وينكر القاص هذا الموقف من ناصري فيصفه إضافة إلى سلوك عملي بالغ القسوة والقرف بأنه "وغد وسافل" ..

وفي المقطع الثاني "التجربة الأولى" يعلن انتماءه الناصري ورفضه ومعارضته للسادات في زيارته للقدس مكررا على لسان صاحبه الذي حذره من مغبة معارضة السادات تبرير "صبري عثمان" السابق في رده على صاحبته القديمة "ليلى فوزي": "إن شعبك — أيها الناصري الحالم —

تعب من القتال والحرب ويريد أن يعيش"، ويَبرز موقفه الرافض وهو يدفع ذلك التبرير بقوله: "ولكن إسرائيل لن تتركنا" ..

وفي جانب آخر من هذا المقطع يسرد طرفا من حوار آخر مع صديق من المعجبين بالرئيس المؤمن "السادات" حول خطابه الذي ألقاه السادات في القدس ووصفه بأنه "أكثر من رائع لأنه يجعل أمريكا اللاعب الأول الذي يملك كل أوراق اللعبة في المنطقة" ودعوته الساخرة الهازلة إلى تحويله إلى نص مسرحي يجعل مصر في صورة حسناء تباع في سوق الرقيق بدولارات "مضروبة"! ولما أبدى موافقة على هذا الاقتراح دعاه لاستكمال كتابته للبدء بتجارب إخراجه لعرضه في القدس المحتلة في عيد الأضحى القادم .. وهذا ما دفعه إلى وصفه كما وصف صاحبه الناصري القديم بالوغد نادما على إفضاء خواطره له لما أيقن من انتهازيته وتغير مواقفه السياسية واحتواء السلطة له .. وهو ما أكده له صديقه الناصري "صبري عبده" في قوله له: "إن سامح سري مباحث"، وكان ذلك سبب سجنه.

على أن أبرز ما يميز موقف الكاتب السياسي الإغراق في الأمل العريض في المستقبل وما سيحمل من تحقيق الأمنيات العربية وخاصة في تحرير الأرض واسترجاع القدس، وهذا ما جعله يحمل على صديقه الناصري القديم "صبري عبده" وأمثاله من الناصريين المثبطين وثوار الزمن الأخير الذين يسجنون ويضيعون أعمارهم في السجن بلا قضية وبلا أفق" ..

وتلقانا وراء ذلك إشارات عدة تدل على موقف القاص السياسي .. منها ما نجد في أقصوصته الثانية "برق في خريف" حول هزيمة يونيو الحزين، ومظاهرات الطلبة في نهايات عبد الناصر وبدايات السادات، وفرحتهما بانتصارات أكتوبر .. ومشاركتهما في انتفاضة الخبز التي كان يسميها السادات "انتفاضة الحرامية"، وأغاني الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم" ..

كما نجد إشارة سياسية ألمح إليها الكاتب القدير في قصته السادسة "سره الباتع" تتعلق بالمنشور الذي طبعه العمدة ووزعه على قرى المركز حيث جاء فيه "لن يقام مولد أبو شبانة هذا العام نظرا للظروف التي تمر بها الأمة، ومشاركة منا لجيشنا وقواتنا المسلحة، واستجابة لصوت الزعيم الملهم جمال عبد الناصر، حتى لا يعلو صوت على صوت المعركة"!

ثم أعقب ذلك بما علق به بعض الخبثاء على هذا المنشور بقوله: "المفروض أن هذا الإعلان، أو هذا البيان كان منذ عامين ونصف وتوقيته الصحيح يونيو 1967 لا فبراير 1970"!

وثم إشارة سياسية تلقانا في اقصوصة "النظر إلى الخلف" /14 تدور حول التحاق أبناء الفلاحين لأول مرة بكلية الاقتصاد بعد هزيمة 1967..

أما آخر الإشارات السياسية في المجموعة فهي تلك الصورة التي رسمها للخطيب السياسي الذي لا يكف عن الصراخ والضجيج في الناس دون جدوى حيث استعار له صورة العنكبوت القابع بين ضلفتي الباب في ركن غرفة مظلمة حيث يقول: "العنكبوت الممدد بين ضلفة الباب المعتمة والركن يخيل لي – مع التصدع الباقي من أثر الزلزال – أنه يشبه خطيبا سياسيا يصرخ في الناس وترتفع يداه"! (قصة حياة / 22) ..

وهي إشارات تتناول المرحلة التي عاشها القاص منذ الثورة والانتماء الناصري إلى مرحلة الرفض لسياسة السادات ..

وهكذا تجلت أبعاد الموقف السياسي للقاص، أو على الأقل الذي آمن به وانتصر له في قصصه السياسية ومواقف أبطالها من قضايا الأمة المصيرية .. وهو موقف يطفح غيرة

وحزنا وألما على واقع الأمة الأسود وآماله العريضة في المستقبل الآتي محملا بالعزة والكرامة والسلام الأصيل ..

ثالثا: أزمات متنوعة:

وإذا تركنا الأزمات السياسية والموقف السياسي للكاتب التي عانى منها أبطال المجموعة ألفينا القاص يطرح أزمات أخرى متنوعة بحسب تنوع شخوص أقاصيصه .. ففي القصة السادسة "سره الباتع" يطرح القاص رؤية جديدة رافضة لما شاع في البيئة المصرية وفي كثير من البيئات الإسلامية من بدع تتمثل في التوسل بالأولياء وتشييد القبور والأضرحة وإقامة الموالد وممارسة ألوان من الأعمال والسلوكيات المرفوضة في تلك المناسبات الاحتفالية .. وتعرض القصة أحد أولئك الأولياء الصالحين كانت قريته تحتفل به كل سنة وتقيم له مولدا مشهورا تقصده القرى المجاورة؛ بل إن القرية ارتبطت به فسميت "كفر الشيخ عمران" وهي إحدى قرى محافظة الشرقية .. وتبدأ القصة بخبر كسر عادة الاحتفال بالمولد منعا للشغب المتوقع من بعض العائلات المتنفذة .. ويرتد الراوي عشرين عاما ليتذكر أحد تلك الموالد وطريقة احتفالهم بها وعاداتهم فيها .. ثم يعرض لبعض ردود الفعل المتوقعة لهذه الخطوة الخطيرة الجريئة التي تقدم عليها القرية .. ويدور الحوار في القصة على محورين: محور الراوي الرافض للبدع ومحور الآخر – شيخ البلد محمد الشامخ – المؤيد للمولد .. ومن خلالهما يستعرض بعض الأحداث السابقة المتصلة بالمناسبة ويسرد الراوي طرفا من سيرة الشيخ عمران وأخباره وما شاع من كراماته التي لا يمل الناس من روايتها .. ومرة أخرى يلقانا هذان الطرفان الرافض والمؤيد في حوار جديد حول الشيخ عمران وقرار عدم الاحتفال به وعمل مولد له حيث يعلن المؤيد غضب الشيخ على القرية ورفضه فتح بابه ليلة العيد .. ويبادره الرافض باستعداده لفتح بابه بالمفتاح الآخر الموجود عند بعضهم ..

ويكشف الراوي عن سبب المنع بالاحتفال وهو ما وقع بين بعض العائلات المشهورة المتنافسة من قتال سابق يخشى أن يتكرر ذلك في هذه المناسبة فاتفق على إلغاء المولد هذا العام وإن اختفى السبب الأساسي وراء السبب السياسي المعلن الذي رفضه القاص محتجا بعدم مناسبته في هذا الوقت كما مر معنا منذ قليل ..

كما لفت نظر الراوي أثر إلغاء المولد على الحياة في القرية وحركة المواصلات ..

ولكن ثمة ما أثار المشكلة من جديد عندما أسرّ له أحد ركاب الحافلة بأن الشيخ عمران أخذ بثأره لإلغاء أهالي القرية الاحتفال بمولده حيث نفقت جاموسة أحدهم، وينبري القاص في صورة العمدة مؤكدا رفضه لذلك الادعاء ومبينا أنها كانت مريضة منذ شهر وتم ذبحها بموافقة الطبيب البيطري الذي كان يعالجها مقررا أن لحمها غير ضار ليتواصل التعاون المعروف بين أبناء الريف في مثل هذه الحالات لتعويض المنكوب بما يشترون من جاموسته ليتمكن من شراء جاموسة أخرى تواصل العمل في الحقل .. والعمدة هنا يؤكد موقف القاص الآنف الذكر من نفوق ثلاث بقرات لعلي المسكين — وربما لحقه هذا اللقب "المسكين" بسبب هذه الكارثة التي ألمت به — والتي كانت بفعل فاعل معروف وضع لها السم في البرسيم ..

وهكذا جاءت هذه الأقصوصة لتطرح رؤية جديدة رافضة، وتقص حدثا شعبيا بالغ الأهمية حيث توسل بها لتقرير رؤيته الرافضة أو تأكيد رأيه الجريء المخالف في مشكلة الأضرحة ومقامات الأولياء والصالحين والاحتفال بهم وما شابه من بدع مرفوضة ..

وقد كان الراوي محظوظا لسلامته لا من بطش الشيخ عمران وغضبه بل من غضب أهل القرية وهو يطرح هذا الرأي المضاد والناسف لمعتقدات الناس في القرية ..

كذلك كان لأزمة المواصلات ظهور في المجموعة يذكرنا بقصة "ركن في العربة" للشاعر الأديب المبدع "بدر بدير" وإن تباينتا في المنهج والغاية ..

ففي الأقصوصة التاسعة "الحافلة التي لم أحلم بها" يقص علينا الكاتب بضمير المتكلم حكاية يوم في حياة طالب جامعي ومشكلة المواصلات وألوان المصاعب والمشاق التي يواجهها منذ أن يحظى بموطئ قدم داخل الحافلة أو على سلمها الذي يشهد من الزحام ما لا يقل عما في داخل الحافلة .. ويُمنَى هذا الطالب بعصابة من النشالين تشترك في تجريده من كافة نقوده وأوراقه الثبوتية ومنها وصل حوالة بريدية من والده .. ويرصد حركة الحدث داخل الحافلة وأطرافا من حوارات الركاب وأحاديثهم المألوفة في مثل هذا الزحام الشديد في حافلات النقل العام .. حتى إذا نجح في اختراق الكتلة البشرية المتراصة في طريقه إلى الباب ليتمكن من النزول في أقرب محطة للجامعة، وترجل من الحافلة وحاول أن يستعيد تكوينه ويطمئن على سلامة أعضائه، اكتشف سرقة نقوده وأوراقه، وأدرك أن تلك الجريمة قد تمت بالاتفاق والاشتراك بين بعض الركاب ومحصل التذاكر .. وكانت المشكلة في العودة إلى المنزل الذي يبعد عن الجامعة قرابة ثمانية كيلو مترات مشيا على الأقدام .. وهنا اكتشف أن المصائب قد تتمخض عنها نعم كثيرة؛ فقد حظي بنعمة كبيرة دفعته إلى شكر النشال الذي أراحه وحمى ضلوعه من التحطم، وأنقذه من رحلة الموت في تلك الحافلة ..

وهكذا كان المشي على الأقدام نعمة جلينة حظي بها بعد نشل نقوده، وكانت أقدامه الحافلة الأخرى التي لم يحلم بها من قبل!!

أما الأقصوصة العاشرة "الأعمار بيد الله" فتحكي قصة "هيفاء" وهي تتهيأ لإجراء عملية إزالة لحمية في الأنف؛ وقد حاول زوجها تأجيل العملية حتى ينقضي العيد، ولكنها رفضت محتجة بأنها عملية سهلة وبسيطة وستشفى

في وقت قصير وهذا ما أيده الطبيب، كما حاول والدها الحيلولة دون ذلك مؤكدا حاجتها إلى طبيب أنف وأذن وحنجرة في الزقازيق أو المنصورة دون جدوى .. وعندما دخلت حجرة العمليات غير المجهزة أعطاها الطبيب حقنة مخدرة لم يحتملها قلبها الضعيف فماتت .. وسيطر الوجوم على وجوه الجميع، ثم أقيم سرادق العزاء لاستقبال المعزين؛ ولم تبلغ النيابة أو الطب الشرعي بالوفاة للتحقيق فيها .. ويبدو أن "منصورا" الطالب بالسنة الأولى في كلية الحقوق فجّر القضية وأبلغ النيابة فجاء الطبيب الشرعي لتشريح الجثة ومعرفة سبب الوفاة .. وكان منصور يقرر عدم صلاحية الطبيب لإجراء العملية ويقول: "إن هذا الطبيب ممارس عام لم يتخصص بعد وليس من حقه أن يعمل عمليات جراحية" ..

هكذا جاءت محاور المجموعة التي أراد القاص عرضها وسرد أحداثها وهي محاور متعددة تمثل أزمات متنوعة عانى منها شخوصه كما عانى منها هو نفسه في الأقاصيص التي طرحت أطرافا من حياته ..

ومن خلال الطرح السابق نتبين محورين رئيسين : محور الحب ومحور السياسية؛

فأما محور الحب فقد جسد فيه طائفة من أزمات ابطاله وكذلك أزماته الخاصة التي تناولها في "مجنون احلام / 1 ، اللهم أخزك يا شيطان /4 ، برق في خريف / 2 ، لن يكلم نفسه في الشارع / 17 " .. يضاف إلى ذلك أقاصيصه التي جسد فيها هذا المحور وعرض أزمات المحبين كما في "شرخ آخر في المرآة /5 ، احزان نادية / 7 ، ازمة الشك في " بيت خالتي / 18 ، نهاية مشروع الحب والزواج في قصة " بلا دموع /15 " وكذلك ازمة السقوط والتحول إلى الهداية في "رحلة اخرى /11 ، وتلحقها قصة "ومضة الرحيل /13 التي

جسدت أزمة الخطيئة والرغبة في التطهر .. وأخيرا أزمة الشرف التي عاشتها "أم داليا /19 " ..

وفي محور السياسة طرح مجموعة من الأحداث التي عاشها القاص أو كانت أثرا للإحباط الذي تمخضت عنه المرحلة الراهنة كما في أقاصيص "اصطياد الوهم /3 ، عكرمة يرفع السلاح /8، في المدى قنديل يضيء /12 ، تلك الليلة /16 " ..

ووراء هذين المحورين طرح الكاتب طائفة متفرقة من الأزمات التي عانى منها شخوص أقاصيصه أو عاشوها وهي أزمات متنوعة يميل بعضها إلى التعميم لصلتها بقطاع واسع من المجتمع كما في "سره الباتع /6 ، أزمة المواصلات في "الحافلة التي لم أحلم بها /9 ، وإن دار الحدث فيها حول الراوي نفسه الذي كان ضحية تلك الأزمة ..

=التشكيـل الفنـي للمجموعـة:

إذا تركنا الجانب الموضوعي وما طرح فيه القاص الفاضل من رؤى، وعالج من قضايا أو قص من أحداث وأزمات، ألفينا الجانب الفني الذي تجسد في صورة رائعة ومتميزة في أقاصيص المجموعة .. ولا غرو، فالقاص راسخ القدم، طويل الباع، واسع الخبرة، غني التجربة، متمرس في إبداع القصة القصيرة، والقصيرة جدا، متمكن من تقنياتها، حريص على توفيها في أقاصيصه التي يبدعها .. وسنحاول في هذه العجالة رصد أطراف محدودة من مظاهر الإبداع التي شاعت في هذه المجموعة مما يتعلق بالبناء والسرد والحبكة والشخوص والمكان وجماليات الأسلوب وغيرها مما أمكننا الوقوف عنده في هذه الدراسة ..

=البناء والحبكة:

بادئ ذي بدء نودّ التنبيه على أن أقاصيص مجموعة "مجنون أحلام" قد تفاوتت في هذا الجانب تفاوتا ملحوظا؛

فبينما نجد اقاصيص كثيرة سادت أحداثها حبكة دقيقة ورائعة، وتمتاز بالتسلسل المنطقي الدقيق، ولا يجد القارئ فيها فواصل وقفزات، ولا يعترضها تقديم ولا تأخير، وإنما تتابع الأحداث وتتسق وتتنامى بشكل تلقائي وطبيعي ومتوازن كما في اقاصيص "برق في خريف" /2 التي ابتدأت بلقائه بنادية ثم استقلا القطار إلى الإسكندرية، ثم تواصل الحوار بينهما حول أيامها الماضية وذكرياتهما العذبة على طول الرحلة .. حتى إذا وصلا محطة الرمل جاءت العقدة عندما كاد الراوي يظن أن الأمور بينهما تجري في مضمارها الطبيعي مجددة آخر لحظات لقائهما القديم، وأنها ستلتئم وشيكا، حيث جاءت اللحظة الحاسمة التي فجرت الموقف وبددت الحلم أو الأمل عندما ترجلت من القطار وعرفته بابنتيها اللتين كانتا في انتظارها، ثم ابتعدن وخلفنه بلا كلمة وداع واحدة ليستقل سيارة أجرة ويعود إلى شقته الواسعة ليجد نفسه وحيدا من جديد ..

وفي قصة "اصطياد الوهم" /3 سارت حبكتها سيرا طبيعيا متوازنا منذ أن التقى "صبري عثمان" و"ليلى وهدي"، ودار بينهما حوار ساخن حول التغير الخطير الذي طرأ على "صبري" معلنة رفضها لأسلوبه وتبريراته غير المنطقية من وجهة نظرها .. وقد سارت القصة في اتجاهين متضادين: اتجاه الرفض أو الثبات الذي تبنته "ليلى"، واتجاه التحول الذي التزمه "صبري" في المرحلة الأخيرة من حياته بعد أن ملّ حياة السجن وجحود رفاقه وتنكرهم لإبداعه مما قوى عزمه على المضي في طريق الانتماء والتبعية للسلطة .. أو على الأقل طريق الإبداع الاجتماعي الذي يتناول الطبقة البرجوازية بعد أن ضاعت إبداعاته التي تمحورت حول الطبقة الكادحة والرفض السياسي، ولم تلق غير السجن والعذاب والقهر من السلطة، والجحود من الرفاق ومرارة الإحباط ..

وفي "شرخ آخر في المرآة" /5 جاءت الحبكة متوازنة وطبيعية، وقد ابتدأ الموقف يتأزم عندما رأت البطلة بعض الشعرات البيضاء تنتشر في رأسها، والتجاعيد بدأت تغزو وجهها، وأخذت تسترجع طرفا من ذكريات حياته السابقة لتقف عند وفاة زوجها، ومن تقدم لخطبتها ورفضها لهم .. ثم جاءت العقدة عندما رأت شرخا آخر في المرآة يتمثل في صورة زوجها الراحل تعبس في شحوب وتطاردها لتمنعها من الإقدام على خطوة الزواج من جديد .. ثم كانت لحظة التنوير عندما اتسعت ابتسامتها وهي تتحسس استداراتها وانحناءاتها متضمنة موافقتها الأكيدة على أول خاطب لها غير عابئة برفض زوجا الميت!

ويلاحظ القارئ أن الحبكة الدقيقة المتماسكة والممتازة تتحقق في الأقاصيص القصيرة بشكل كبير كما في "رحلة أخرى" /11 حيث تطور الحدث تطورا دقيقا ومتوازنا حتى بلغ الذروة أو العقدة عندما أخذت صورة شقيقتها تتقحمها وتزلزل الأرض من تحت أقدامها وتذهلها عما حولها وتهبط من فوق المنضدة التي كانت ترقص عليها غير عابئة بصراخات المسؤولين التي ضجت بها الصالة لأنها كانت مشغولة عنهم بما ترى من طيوف أختها وأبيها، والجنة الحقيقية التي كانت تتهيّأ للقائها ..

ومثلها حبكة "ومضة الرحيل" /13 و"النظر إلى الخلف" /14 والذروة التي وصل إليها الحدث وما تتميز به من روعة وإتقان إذ يقول : "مشى عدة خطوات ، ووجد زوجته مشغولة بتصفح واجهات المحلات ، فنظر إلى الخلف خلسة ، ووجد سميرة أيضا تنظر خلفها"!

كذلك تحققت الحبكة الجيدة لكثير من أقاصيصه التي امتازت بقدر من الطول حيث ظل القاص ممسكا بدقة ووعي وأناة بخيوطها كما في قصة "بلا دموع" /15 ، وقصة

"أم داليا" /19 ، وقصة "أحزان نادية" /7 ، و"الحافلة التي لم أحلم بها " /9 ، و"الأعمار بيد الله " /10 ... وهكذا جاءت الحبكة دقيقة ومتوازنة ورائعة في كثير من أقاصيص المجموعة وخاصة المحدودة الطول أو القصيرة والمتوسطة الطول التي كانت تعرض حدثا محددا مجردا من الاستطرادات والاسترجاعات التي يتشعب الحدث معها فيؤدي إلى إفساد الحبكة فيها ..

وأمامنا القصة الرابعة "اللهم أخزك يا شيطان" نموذج لفقدان الحبكة الدقيقة التي ألفناها في الأقاصيص السابقة الذكر وفي كثير من أقاصيصه التي اطلعنا عليها في مجموعات أخرى ..

وقارئ القصة يجد حبكتها عصفت بها عاصفة هائلة من التفكك والتمزق لا تقل عن تلك العاصفة التي اجتاحت نفسيات البطل والبطلة حتى أوشكا على السقوط في مستنقع الرذيلة لولا لياذهما بالله ودعاؤه أن يخزي الشيطان الرجيم ويكف عنهما تسويله واستجابته له ..

والمتأمل في الأقصوصة يجدها مبعثرة الأجزاء تفتقد التماسك الدقيق والتتابع أو التداعي والتطور الطبيعي للحدث .. ولا نقصد هنا نقطة البداية التي رصدت ذروة الحدث وبؤرته عند الذهاب إلى الحديقة بسيارته وبجانبه "صباح"، وما أثارت في نفسه من أمواج الشهوة العارمة وما اضطربت نفسه به من هواجس وخواطر وسلوكيات سردها على سبيل الاسترجاع .. إذ إن مثل هذا البناء جيد ولا غبار عليه وهو أمر مشروع في بناء الحبكة واستعراض الحدث على نحو ما سنتبين ذلك عند الحديث عن ظاهرة "الاسترجاع" في أقاصيص المجموعة .. وإنما قصدنا تناثر الفقرات المتشابهة وتباعدها وتداخل الأحداث بشكل يدفعنا إلى محاولة إعادة ترتيبها لتحقيق تتابعها واتساقها .. وهذه القصة بناها على العلاقة المحرمة التي كادت تنشأ بينه وبين ابنة خالته

"صباح" بتدبير من "سناء" لتنفرد بزوجها "صالح" .. وسارت الأحداث في هذا الاتجاه، ولكنها بدلا من مواصلتها حتى تبلغ الذروة فالحل أو النهاية التي يقررها القاص، وهو كاف لبناء القصة وصالح لتحقيق حبكة متوازنة، وجدناه ينجرف إلى الاسترجاع الذي هو في حد ذاته ظاهرة مشروعة في بنية الحدث، ولكننا نأخذ عليه ما أحدث في بنية الحدث الرئيس من تفكك وتناثر لجزئياته .. فقد ابتدأ القصة بنقطة استقلالهما السيارة منطلقين إلى الحديقة لقضاء فترة تريح أعصاب "صباح" استجابة لنصيحة سناء ومشورتها الخبيثة .. ولكنه سرعان ما كرّ راجعا مرة أخرى إلى رحلة السيارة في فقرة أخرى "اكتشف سمير ... بالفعل"، ثم قفز إلى لحظة الوصول إلى الحديقة وجلوسهما متجاورين فيها ليواصل وساوسه وخواطره السوداء مع صباح التي أخذ يعتبرها امرأة ساقطة فعلا بغير وجه حق حيث لم يكشف عن دليل واحد يؤكد رأيه فيها .. ثم استطرد يعرض طرفا من حياتها وسيرتها الذاتية وقصة زواجها من صالح ورأيه في سلوكياتها في بيت زوجها وانفرادها في شقة مستقلة وإنجابها "صالح الصغير".

وهنا نودّ أن نشير إلى ما أصاب الحبكة من تفكك .. فبعد أن فطن لخطة سناء الخبيثة عاد لرحلة السيارة مؤكدا اشتهاءه لصباح ومراقبته الدقيقة لها ومتابعة هواجسه ووساوسه تجاهها .. وقبل أن يستيقظ ضميره ليبكت نفسه على هواجسه السيئة في فقرة أخرى "هل وئد الإنسان في داخله .... الصغيرة"، كان عليه أن يأتي بالفقرة التي ترصد انفجار ثورة الشهوة في نفسه وهي: "مشت سيارة سمير ... ... بلى " ؛ وهي التي افتتح بها القصة .. وعندما وصلا إلى الحديقة وجلسا متجاورين وصورها له خياله الشبق أنها امرأة ساقطة، كان عليه أن يتبع ذلك قبل الاستطراد عن حياتها وزواجها بفقرة "داعبت فكرة شيطانية مخيلة سمير .... صباح"، ثم يتبعها بفقرة "ضجت النيران في أعماق سمير

..... الكلام"، ويمكن أن يضاف إلى ذلك فقرة "ربما ليثبت لنفسه أنه مروض لنمرة شرسة ..... وهواجسك"، ثم فقرة " ضحكت ضحكة صفراء .... وهي لا تسمعه"، "لم أحس أنني تزوجت ....فلم أستطع " ، " لم أشعر أنني زوجة .... أرخص قطعة أثاث في البيت" .. وهنا يمكن أن توضع الفقرات التي صور فيها هواجسه واشتهاءه لصباح كما تجلت منذ ركوبهما السيارة وامتدت حتى وصلت الحديقة .. وفي تقديري لو أن القاص الفاضل أعاد بناء القصة وترتيب أحداثها وتنسيق فقراتها ليحقق لها حبكة دقيقة ومتوازنة لقدم وأخر في كثير من فقراتها ..

على أننا نودّ أن نؤكد هنا أن ما اقترحناه هو حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل لعلنا لا نبعد إذا قررنا أن ذلك قد يكون خاطئا كله أو في جوانب كثيرة أو قليلة منه، وأن للقاص الفاضل مبرراته التي تدحض اقتراحنا، ولكنها وجهة نظر طرحناها وله إزاءها ما يشاء ..

وفي القصة السادسة عشرة "تلك الليلة" التي سرد فيها حكاية سجنه وهروبه نجده افتتحها بحدث الهروب، ثم كرّ راجعا إلى حديث السجن مبتدئا باللحظة التي كان يتحاور فيها مع رفيقه "صبري عبده"حول فشل مخططه السياسي مؤكدا وهمه إذا أراد أن يغير التاريخ لأن "الزعماء وحدهم هم الذين يغيرون التاريخ والجغرافيا أيضا" .. ويتبعه بتفسير قوله ورفض صاحبه لهذا الأسلوب المندد بناصر "مثله الأعلى"، ثم انتقل لقص حدث إيداعه السجن مبتدئا بتحذير مساعده من مغبة معارضة السادات في ذهابه إلى القدس .. وأتبعه بما وقع له مع معجب آخر بالسادات وما أوحى به من اعتقاله الوشيك .. وفجأة ينقلنا إلى المعتقل ليخبرنا أنه لحق ببعض رفاقه الناصريين بسبب إفضائه لبعض المعجبين بالسادات، ساخرا، لتحويل خطاب السادات في القدس إلى مسرحية فوشى به فاعتقل .. ثم يتحول ليعرض علينا أصل القضية

عندما حضر إليه ضابط وشرطيان استدعوه لسؤاله سؤالين يعود بعدهما لمواصلة بروقاته، ولكنهم لم يسألوه وأودعوه السجن مباشرة .. وظل في السجن إلى أن هرب؛ وقبل أن يتمتع بهروبه ألفى نفسه في السجن من جديد برفقة "صبري عبده" صاحبه الذي لم يكن راضيا عن هروبه لعقم هذا التصرف .. وواضح أن حق هذه الفقرة أن تتعانق مع لحظة الهروب التي افتتح بها القصة التي كان عليه أن يفتتحها بمعرضته للسادات فالمساءلة أو الاستدعاء فالاعتقال فالمحاورة مع صاحبه الناصري ثم الهروب فالإعادة إلى السجن من جديد ...

وفي نقدنا لبناء الحبكة هنا أيضا لا يطال ظاهرة "الاسترجاع" التي اعتمد عليها القاص بشكل لافت وجيد، وحقق بها لأقاصيصه قدرا كبيرا من الروعة والجمال والإمتاع .. وإنما كان ذلك لما أصاب حدث القصة من تفكك وتخلخل وتشتت ..

وقارئ المجموعة يتبين أن القاص الفاضل قد بنى بعض أقاصيصه على "الاسترجاع" حيث كان يبدأ برصد الحدث من بؤرة معينة ثم ينطلق مسترجعا أطرافا متعددة منه وفق ما تقتضيه القصة .. ومن تلك القصص التي بناها على هذه الظاهرة "لن يكلم نفسه في الشارع" /17 والتي تقص حكاية رحلة جوية قام بها القاص إلى جدة، وقد واكبتها رحلة نفسية واسعة انبرى يسترجع فيها طائفة واسعة من الأحداث والذكريات والمشكلات أو الأزمات التي تعرض لها خصوصا في قضية زواجه من خالة "شادية" زوجة ابنه بعد انفصاله عنها لعدم التكامل أو فقدان التأقلم معا .. وقد امتد الاسترجاع في القصة إلى ذكر أحداث الأمسية الشعرية التي أقيمت تكريما لشاعريته ومن حضرها من أساتذة الجامعات، ثم تعرفه على الدكتور "ماهر رشاد" زوج الدكتورة "حنان" شقيقة "سماح صبري" التي ارتبط بها بعد

أن عرضت عليه شقيقتها ذلك .. ثم أخذ يسرد طرفا من ذكرياته معها في الجامعة .. وهنا يخبرنا القاص أنه كان يريد إرسال مشكلته مع ابنه هشام الذي تزوج من ابنة شقيقة زوجته التي انفصل عنها إلى أحد المختصين ليرشده إلى الحل، ولكنه عدل عن ذلك عندما أخذت أضواء جدة تبدو من نافذة الطائرة ممنيا نفسه بلقاء هشام وزوجته ..

كذلك بنى قصته "مجنون أحلام" على الاسترجاع منذ أن افتتحها بآخر لقطة منها أو آخر جزء من الحدث فيها عندما كان يرافقها وخالتها في صالونهم الخاص المتجه إلى الحديدة، وكان ينتهب الأرض مشفوعا بصوت نجاح سلام تتغنى بأغنية "يا ريم وادي ثقيف" .. حتى إذا انتهى من عرض هذه اللحظة انبرى يسترجع أطرافا من حياته في اليمن وتعرفه على "أحلام" التي سلبت عقله بجمالها الآسر، ورؤيتها المتكررة في القرية وما كان يدور بينهما من أحاديث إلى أن تم الاتفاق بينهما على الزواج .. ومع كل هذه الأحداث المسترجعة فقد ظل القاص ممسكا بخيوطها، وظلت القصة تحتفظ بوحدة الحدث وسلامة البناء وتحققت لها الحبكة الدقيقة المتماسكة .. وهكذا افتتح القصة برحلة الصالون ثم ختمها بتلك الرحلة نفسها ساردا بينهما مسيرة أحداث القصة على طريقة "الاسترجاع"، محققا لها قدرا كبيرا من الإبداع والإمتاع!

ويضاف إلى ما ذكرنا قصته السادسة "سره الباتع" التي تحققت لها دقة الحبكة وتناسق جزئيات الحدث برغم ما شاع فيها من الاسترجاع لبعض الأحداث الخاصة بالشيخ عمران نفسه أو بالقرية والناس أو بالاحتفال بالمولد أو إلغائه أو غير ذلك .. حيث ظلت خيوط الحدث مشدودة إلى يدي القاص يحركها كيف يشاء في تتابع وتناسق دقيقين ..

وهكذا نجد هذه الأقاصيص قد حظيت بحبكة دقيقة ومتوازنة، في حين افتقدت بعض الأقاصيص تلك الحبكة بسبب تعدد أحداثها وتباعد أجزائها والحاجة إلى الاسترجاع

في جوانب منها .. ومهما يكن فقد امتاز القاص المبدع في أغلب أقاصيص المجموعة ببناء دقيق للأحداث ، واستواء الحبكة وتوازنها بل وروعتها وتميزها ، وحرص بالغ على تتابع الأحداث وتصعيدها لبلوغ الذروة وإتباعها بلحظة التنوير المناسبة، مما يؤكد عبقريته وتمكنه في إبداع هذا الفن وتوفير كافة التقنيات والجماليات اللازمة له ..

= أنمـاط السرد في المجموعة:

توزع أقاصيص المجموعة نوعان من السرد أو نمطان أحدهما: ضمير المتكلم أو الراوي الذي كان يقوم بسرد الأحداث وروايتها سواء أكان هو البطل أو الشخصية الرئيسة فيها كما في أقاصيص 1 ، 4 ، 6 ، 8 ، 9 ، 12، 16، 17 ، أم كان البطل فيها شخوصا آخرين كما في قصص 18 ، 19 . والآخر ضمير الغائب الذي جاء في قصص 2، 3، 5، 7، 10، 11، 13، 14، 15. وقد وفق القاص فيكل ذلك توفيقا بعيدا لما يملك من قدرة ودربة وموهبة فذة سواء أكان يسرد أحداثا تتعلق بشخصه وتدور حوله، أم كان يقص أحداثا أخرى تتعلق بشخوص آخرين تطوع برصدها وسردها بضميره الخاص المتكلم ..

بيد أن القارئ يمكن أن يلحظ أن كثيرا من سردياته التي ترك المجال فيها لشخوصه ليتحدثوا عن أنفسهم، ويسردوا أحداثهم قد يكون لها صلة وثيقة بالقاص، بمعنى أنه كان هو البطل الحقيقي لها، وأنه اختفى وراءه أو تقنع بقناعه . ربما تنويعا لأنماط السرد بعيدا عن مقاصدها ومغازيها التي لم تكن تختلف عن تلك التي سردها بضمير المتكلم، وتناولت أحداثا وأمورا خاصة به مما كان يوجب التقنع والتستر بضمير الغائب .. وإذن فاستخدامه لضمير الغائب لم يكن ضربا من التستر والاختفاء تدفعه إليه ضرورة أو حذر أو غير ذلك ..

أما تلك التي سردها بضمير الغائب فأغلب الظن أنها كانت تنتمي إلى شخوص آخرين، وجاءت كشهادات لرؤيته ومعايشته أحداثها وعدم مشاركته فيها، مع أنه لا يوجد ما يمنع مشاركته فيها بشكل أو بآخر .. وسرده لها عندئذ مجرد تنويع في أنماط السرد وتقنياته ..

=الشخصية وملامحها في المجموعة:

من يقرأ مجموعة "مجنون أحلام" يتبين أنه أمام نوعين من القصص: قصص الحدث، وقصص الشخصية؛ فأما قصص الحدث فهي تلك التي تقوم على سرد حدث معين قام بممارسته وأدائه شخوص معينون، والتركيز فيها عادة يكون على مسيرة الحدث وتتابع جزئياته حتى لو حظيت الشخوص فيها بعناية خاصة من القاص وحرص ظاهر على رسم كثير من ملامحهم .. ويقوم القاص في هذا النوع من القصص بتتبع حركة الحدث وتطوره وتصعيده ليبلغ الذروة فلحظة التنوير، في حين نجد قصص الشخصية تُعنَى في المقام الأول برسم ملامح الشخصية ورصد معالمها ، ثم يأتي الحدث تابعا لها، مما يجعل الحدث فيها يفتقر إلى الوحدة العضوية أو التماسك الدقيق والتتابع المنطقي .. وهذا يجعل الحبكة مفككة أو فضفاضة، وقد تفقد فيها .. ونحن إذا ألقينا نظرة على قصص المجموعة وجدنا غالبيتها قصص حدث ، تتابع الأحداث فيها وتتطور بصورة تلقائية وطبيعية كما في قصص : 2، 3، 4، 7، 9، 10، 11، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19 .. فكل قصة منها تقص حدثا محددا تمارسه الشخصية بدقة، ويتطور بشكل دقيق وسلس ويخلو من التكلف والاعتساف أو التشتت والتمزق فيما وراء تلك التي رأينا ما أصاب حبكتها من تفكك .. في حين جاءت قصص أخرى تحتفل بالشخصية احتفالا بالغا، أي أنها كانت قصص شخصية وهي: 1، 5، 6، 8، 12 "حيث حرص القاص على رصد ملامح الشخصية فيها على حساب وحدة الحدث

فيها والتي أصابها غير قليل من التمزق والتناثر ..

والمتأمل في شخوص المجموعة يجد القاص عُنِي عناية خاصة بالملامح المستمدة من البيئة أو الوسط الاجتماعي والثقافي لشخوصه بما وفر لهم من قيم اجتماعية وثقافية وفكرية وتعليمية ووظيفية، ولا غرو، فهذا هو الوسط الذي يخص القاص ويرتبط به ارتباطا وثيقا، والذي منه اختار شخوص قصصه .. ففي القصة الأولى "مجنون أحلام" جاءت شخصيتا "عبد السلام" و"أحلام" من طبقة الجامعيين الأكاديميين، فهو مدرس مصري قادم للتدريس في إحدى مدارس اليمن، وعلى وشك أن يناقش الدكتوراه في التاريخ، وهي حاصلة على بكالوريوس في التربية وتعمل معيدة بكلية التربية بجامعة صنعاء، وتريد أن تسافر إلى القاهرة للحصول على الدكتوراه.. وصديقه "عاطف" مدرس لغة عربية في اليمن، والشيخ محمد الأهدل ناظر مدرسة بني علي وحاصل على الماجستير في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .. و"حزام" ابن خال أحلام طبيب متخرج من موسكو .. و"عبد السلام" هذا هو نفسه بطل أقصوصتي "الرحلة الأولى" /20، و" حياة "/22 ..

وفي القصة الثانية نجد "نادية" و"محمود" ينتميان إلى الوسط الفني، فهي مخرجة مسرحية وهو مؤلف مسرحي ، و"ليلى زهدي" و"صبري عثمان" في القصة الثالثة ينتميان كذلك إلى هذا الوسط الفني وإن تباينت مواقفهما السياسية بفعل الظروف كما رأينا .. وفي القصة الرابعة جاءت شخوصها من وسط راق مثقف ، ف"صالح" مهندس وهو رئيس " سمير"، و"سناء" دكتورة أستاذ بكلية طب الإسكندرية وجامعة الملك سعود بالرياض، و" سمير" مهندس "تخرج من هندسة إسكندرية ويعمل في المملكة منذ خمسة عشر عاما .. و"صباح" حصلت على دبلوم التجارة ، وأبوها مهندس زراعي، وأمها ناظرة مدرسة ابتدائية ..

و"نورا" في الأقصوصة الخامسة حاصلة على بكالوريوس الصيدلة، وزوجها المتوفى طبيب بيطري، وعندما توفي تقدم لخطبتها أكثر من طبيب وصيدلي ..

وفي القصة السادسة "سره الباتع"، فعلى الرغم من أنه أغفل الوسط الثقافي والتعليمي للبطل الراوي، إلا أنه من خلال موقفه الرافض للبدع يتبين أنه مثقف ومتأثر بثقافة مخالفة لثقافة بيئته وما يسودها من بدع ..

وفي "أحزان نادية" /7 نجد "نادية" و"محمود" زميلين في قسم علم النفس بكلية المعلمين قبل أن يتحول اسمها إلى كلية التربية، وكانت دائما الأولى، وكان ينافسها على التفوق، ولكنه كان يأتي دائما بعدها .. وتزوجا فهما معيدان بالكلية .. ثم صار محمود أستاذا بالجامعة، وصارت هي أستاذة لعلم النفس، كما كانت "ناهد" تلميذة لمحمود ثم تزوجها ..

وفي "الحافلة التي لم أحلم بها" /9 نجد الراوي طالبا في آداب القاهرة قسم اللغة العربية ويذكر أحد أساتذة القسم الكبار العمالقة الدكتور عبد العزيز الأهواني أستاذ الأدب الأندلسي ..

وفي قصة "لن يكلم نفسه في الشارع" /17 يذكر أستاذين آخرين من قسم اللغة العربية هما د/عبد المنعم تليمة ود/ طه وادي، فضلا عن أنه كان طالبا في القسم، كما كانت "سماح" تتقدمه بسنتين ولها نشاط ملموس في الجماعة الأدبية بالمدينة الجامعية ..

وفي قصة "الأعمار بيد الله" /10 كانت "هيفاء" حاصلة على دبلوم تجارة وتعمل في الوحدة المحلية، والطبيب لم يكن أول طبيب في القرية بل سبقه طبيبان وطبيبة، وإن كان الوحيد الذي تجرّأ على إجراء عمليات جراحية لكثير من الأهالي .. و"منصور" الذي فجر القضية طالب بالسنة

الأولى بكلية الحقوق، و"صادق" شقيق هيفاء مهندس يعمل في مجلس المدينة ..

وفي قصة "في المدى قنديل يضيء" /12 جاءت الشلة كلها من خريجي السجون السياسية، وكلهم ركبوا موجة الثورة وتبوّأوا المناصب ، وصار أحدهم رئيسا لقطاع السينما، وصار الثاني مشرفا على هيئة المسرح، والثالث رئيسا لمجلس إدارة إحدى الصحف، والرابع مديرا للرقابة على المسرح .. أما أستاذهم "حسام منير" فقد ترك الحزب الشيوعي إلى الأبد، ولكنه رفض الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي وركوب موجة الثورة .. وهذا الوسط السياسي الرافض نفسه يلقانا مع بطل "تلك الليلة" /16 ..

وفي قصة "النظر إلى الخلف" /14 يلقانا "الدكتور محمود الأنصاري الذي كان طالبا في المرحلة الثانوية قس منتصف الستينات، وقد أسس جامعة الزقازيق ثم تركها مستقبلا وذهب إلى الإمارات ليتخفف من الصراعات والمشاكل التي كابدها في جامعته .. وزوجته الدكتورة منى الأستاذة بكلية الزراعة، و"سميرة عاكف" زميلة محمود في كلية الاقتصاد من ثلاثين سنة .. وكانت مع أول دفعة التحق بها أبناء الفلاحين بعد هزيمة 67 .. وهي ليست فلاحة / فأبوها كان مدير أمن الشرقية الأسبق .. وابن "الأنصاري" "طلحة" دكتوراه في الهندسة من ألمانيا، وافتتح مكتبا هندسيا يعمل معه فيه مهندس وأستاذ استشاري ومهندسة هي "شيرين" ابنة "سميرة عاكف" ..

وفي القصة الخامسة عشرة "بلا دموع" حسام محاسب بإدارة المنصورة الهندسية، و"عمر" أخو "هند" خطيبة حسام مدرس الفيزياء في مدرسة القرية الثانوية، ويعطي دروسا خصوصية .. ووالدهما "المهندس عثمان" يعمل في شركة بترول بالصحراء الشرقية، وأمهما "الحاجة "عنايات" الموجهة

المالية والإدارية بإدارة الزقازيق التعليمية .. وكان "حسام" و"هند" في مدرسة واحدة منذ المرحلة الابتدائية فالإعدادية فالثانوية، وكانا يتنافسان دائما على المركز الأول، والتحقا بكلية التجارة، وعُيِّنا معيدين منذ ثلاثة أعوام .. وكانت حكاية حبهما على كل لسان منذ نهاية المرحلة الثانوية ... وخال "هند" الباشمهندس محمود، وابنه الدكتور محسن العائد من أمريكا، وكانت جامعة الإسكندرية قد أوفدته في بعثة دراسية لمدة خمسة أعوام، ولكنه حصل على الدكتوراه في سنتين ونصف ..

وشخصية "لن يكلم نفسه في الشارع" /17 أستاذ جامعي وشاعر، ويرصد من هذا الوسط المتميز عددا من زملائه الأساتذة الكبار في جامعتي الإمام وسعود وكلية المعلمين : "عبد الحميد إبراهيم وحلمي القاعود، وحامد أبو أحمد، ومحمد علي داود، ويحيى عبد الدايم، وعبده زايد" .. ثم الدكتور "ماهر رشاد" أستاذ الصحافة بجامعة الملك سعود، وزوجته الدكتورة حنان زميلة له وأستاذ مشارك، تزوجا مذ خمس وعشرين سنة وأنجبا ولدين تخرجا من كليتي العلوم والطب، وبنتا ستتخرج هذا العام من كلية الهندسة .. وأختها "سماح صبري" زميلة الراوي في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة .. وكانت قد درست معه السنة التمهيدية للماجستير ولكنها لم تكمل دراساتها العليا، ثم صارت رئيسة قسم في وزارة التربية والتعليم. ولكن جاره "مصطفى العبد" المحاسب في بنك الرياض يذكر أنها حصلت على الماجستير في النحو من عدة أعوام .. وكان أبوها مدرسا للعلوم بمدرسة المساعي المشكورة الثانوية بشبين الكوم .. أما الراوي فقد كان له ولدان تخرجا من كلية الطب، وسافر أحدهما إلى بريطانيا وتزوج إنجليزية والثاني تزوج "شادية" ابنة الدكتورة حنان " ..

وفي القصة الثامنة عشرة "بيت خالتي" نجد "سناء"

تتزوج من زميلها "رشاد" المهندس في الإدارة الهندسية بالجيزة .. وابن خالتها "حسام" حاصل على الدكتوراه في التربية من أمريكا، وعاد ليعمل مدرسا في كلية التربية بالزقازيق ..

أما " أم داليا "/ 19 ، فهي أستاذة جامعية تدرس علم النفس، وزوجها ضابط مظلات، وابنتها "داليا" تخرجت منذ عامين وعملت في الإدارة الهندسية في مجلس المدينة ..

وهكذا جاءت شخوص المجموعة كلهم ينتمون إلى وسط اجتماعي وفكري راق ومتميز، وهو الوسط الجامعي العامل في مجالات التعليم والهندسة، وهو نفس الوسط الذي ينتمي إليه القاص .. وهو بذلك يحدد هوية ونوعية الشخوص الذين يتعامل معهم ويسرد أطرافا من حيواتهم وأحداثهم، فضلا عن أحداثه الخاصة به التي رواها في بعض أقاصيصه .. وكأني بالقاص الفاضل قد وجد بغيته وضالته وكفايته في هذا الوسط الجامعي الراقي، ولم يجد حاجة تدفعه للتعامل مع أنماط بشرية يلتقطهم من أوساط اجتماعية أخرى شعبية وغير شعبية كما يفعل غيره من القاصين ..

=جماليـات الأسلوب في المجموعة:

من الظواهر اللافتة في هذه المجموعة القصصية " مجنون أحلام " انتشار الجماليات الأسلوبية المتميزة، وشيوع الشاعرية الرقيقة الخلابة في جوانب كثيرة منها، ولا غرو، فالقاص فنان مبدع أصيل وشاعر مفلق يمتلك رصيدا ضخما من اللغة، وقادر على التعامل بحذق ومهارة مع البنَى اللغوية الجميلة التي تشيع في إبداعاته المتنوعة .. وقارئ المجموعة يجد شواهد هذه الظاهرة الأسلوبية تتفشى في جوانبها ولا تكاد تخلو منها صفحة من صحفها، كما يدرك حرصه البالغ على انتقاء ألفاظه وتشكيل عباراته وتراكيبه تشكيلا فنيا متميزا يبلغ في كثير من الأحيان حد الشاعرية

الرائعة المتدفقة .. ولو مضينا نسرد هذه الجماليات لأثبتنا قطعة كبيرة من المجموعة مما يجعلنا نلتقط شواهد محدودة تشي بما وراءها من جماليات أسلوبية؛ فمن هذه الشواهد وصفه لـ"أحلام" عندما رآها في قوله: "حين رأيت الموجة ذاتها تخرج من بيت قرميدي قديم ، وترش برذاذها وجهي وثياب "عاطف"، "كانت عيناها ساعة الغروب قنديلين يضيئان سمائي"، "ورذاذ المطر الخفيف تتشربه الأرض كما يتشرب الخمار دموع الأرملة التي لا أعرف اسمها"، "هل تعود الحياة إلى ساقي ابنها فتراه يلعب مع أقرانه، بينما هي تصهل صهيل الأرض المتشققة للماء"، و"أحلام" المتشبثة بأشجار تتكاثر في السهل، تشير إلى كل موجة في سيول زبيد، وتعني قبل صهيل البداية أن تظل شجرة مورقة، ونهرا يدفق بالخصب لا يقاربه جفاف، وأن تظل دائما الأم والزوجة والبنت، وشجرة توت أخضر تعطي بامتداد الفصول والمواسم!

كنت مفتونا أغلق نوافذ فكري، لا أفكر في العاقبة ... ووحدها كانت ترى الخضرة في الأفق، والأيايل في البراري، والشموس تضيء الغد، وابنها القعيد يعدو في طرق جميلة معبدة" ...

وعندما رأت "نادية" النادل من بعيد كانت عيناه كرصاصة نارية تخترق تجاويف صدرها".

ويقول على لسان عكرمة: ألفت رؤية الغريب ... فاستسلمت أغصان فؤاد مسربل بقصائد الضياع، وكانت روحي تنزف الحروف .. متقطعة، وأصدقائي يقولون: ثرثرة عمياء بلا بصيص ضوء" ... "وكانت الصافنات تغني في المساء الأخير أغنيتها الأثيرة التي رددتها كثيرا في الأيام الأخيرة منادية من لا أبصره:

أيها المستجير من الرمضاء بالنار ..
لا تترك السيف ..
لا تخلع الدرع ..
انت في قيامتك الكبرى رايتك مرفوعة للريح ..

والغريب مدجج بالخراب ..
وخطواتك لن تقتلعها الريح ..
لك موت يجدر بشهيد ..
وللغريب حياة مجللة بالعار ..
لك أن تعيش طويلا .. أنت والنسور في الأعالي ..
كان الطين يرسخ شهادته في السهول الخضراء، والأرض توثقها في الجذور .. فلن تقتلع الريح خطوتك يا عكرمة"!!

يا ابن الأرض، هاهي الريح بجانبك، تدفق الدماء في الجسد، وتزهو الريح لأنك نبتها الذي لم ينحن، وتقول: ستقتلع وحش الغابة الذي يهددك بالمحو، ستنتصر على الغريب فلا تخف .. وهاهي الخيول تقول: إنها أحبتك منذ رأتك .. تحاول أن تضمك لصدرها بقوة، بعد أن كانت قد ابتعدت زمنا .. تقول: هل يصعد قاربك يا عكرمة ؟ فوق بحار الشوق المشتاقة؟!!

وهذه اللغة الشاعرة التي أنطق بها قاصّنا المبدع الفنان تلك الصافنات وهن يناجين عكرمة المنقذ، الرمز العربي الأصيل، وصف بها القاص "الحافلة" المشؤومة التي شهدت نشل نقوده وأوراقه الثبوتية حين يقول: "جاءت الحافلة تتمخطر كعروس ليلة زفافها" ..

وأما "صابرين" الملكة، فقد كانت مشغولة عنهم بما تراه رأي العين، فأختها عبلة تفتح أحضانها الطاهرة لاستقبالها، ووجه أبيها المبتسم يملأ المكان، والجنة، الجنة الحقيقية تناديها"..

وأما الزعماء، فهم الذين يقدرون على تغيير التاريخ والجغرافيا: "حينما ينتصرون يغيرون التاريخ، وحينما يتركون أرضهم لأعدائهم كما فعل زعماء العرب في حرب 1967، فهم يغيرون الجغرافيا"!!

وأما بطلته التي تعاني من جحيم الشك المستعرة في

صدرها، فقد جعلها تفصح عن شيء يسير من هذا الشك المحتدم في قولها: "أعبر أصص الزهر مصحوبة بكواكب معتمة في الأفق، أمشي نحو بساتين خضراء معلقة على الحائط في لوحة فاتنة تتابعها عيناه في عتمة ما بعد الغروب .. إنه لا يشاركني في ترحالي الأسبوعي إلى بيت خالتي في رحلة تصحبني فيها خفافيش الذكريات وسود الأماني .. ما بيننا سور عال لم تستطع الكلمات أن تتقحّمه"!

وتلقانا ظاهرة أخرى من ظواهر الإبداع في القص في هذه المجموعة تتمثل في غرام القاص المفرط العجيب بالتفاصيل والدقائق حيث امتلأت أقاصيصه بكم هائل من التفاصيل الدقيقة، والتي قد لا يكون لها ضرورة في كثير من الأحيان، وليس للقصة بها حاجة لكونها محايدة بالنسبة لمسيرة الحدث وتطويره .. ولكنها في الحق ذات دلالة بالغة على ملكة القص والسرد لديه، والقدرة على تقصي العناصر واستدعاء الدقائق في أي وقت وعدم إغفال شيء منها سواء أكان مهما أم غير مهم .. فمثل هذا الأمر يقوي ملكة القص والسرد، ويدربها على الرصد والتقصي .. وأينما يممت وجهك في أرجاء المجموعة تقع عيناك على تفاصيل كثيرة أغرم بها القاص الفنان، وعُني برصدها واستحضارها عناية فائقة ..

وسنقف عند قصة "لن يكلم نفسه في الشارع" /17 التي يمكن اعتبارها نموذجا فذا لعناية القاص بالتفاصيل والدقائق، والتي تلقانا منذ أن دخل مكتبة جرير للبحث عن كتب تفيده في إعداد البحث الذي سيلقيه في المنتدى الأدبي في الأردن بعد شهر .. ثم تحول إلى واجهات المحلات التجارية في شارع العليا حتى دخل "مكتب الزهراء للسفر والسياحة"، وسأل أحد الموظفين . مصري . عن الرحلات المتجهة إلى جدة، واختار إحداها مبررا ذلك.. ثم حدد رحلة العودة وأخذ التذكرة ونقد الموظف (560ريالا) .. ثم أعدّ حقيبة السفر مصطحبا مجموعة محمد جبريل "سوق العيد" لأنه لم يجد

فرصة لقراءتها منذ صدورها قبل ثماني سنوات .. وركب السيارة، وأجرى مخابرة مع ابنه هاشم يخبره برحلته ويطلب منه انتظاره .. وفي الطائرة جلس على المقعد (A 37) ، وأخذ يقرأ عناوين جريدة "الندوة" التي وزعتها عليهم المضيفة ..(أثبت القاص تلك العناوين في القصة) .. وعندما استرجع بعض الذكريات وقف عند الأمسية الشعرية التي أقامها النادي الأدبي بالرياض يوم الثلاثاء على عادة النادي، وذكر من حضروا معه من الأساتذة الجامعيين .. ثم تحول إلى علاقته بالدكتور ماهر وزوجته د/ حنان وما تبع ذلك من قصة زواجه من شقيقتها "سماح" ، وما وعى من ذكرياتهما منذ خمسة وثلاثين سنة في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة في ندوات الجمعية الأدبية بالمدينة الجامعية .. وإتمام الزواج ثم فشله لعدم التأقلم .. وعندما وصل جدة والتقى بابنه هاشم وزوجته "شادية" ابنة د/ حنان، ركب معهما السيارة التي كانت سرعتها تزيد عن (120كم) .. وغير ذلك من التفاصيل الكثيرة التي ملأ بها فضاء القصة ..

ووراء هذا النموذج تلقانا شواهد كثيرة لهذه الظاهرة الفنية التي امتلأت بها قصص المجموعة، وإذا شئنا نموذجا آخر كان أمامنا قوله من قصة "مجنون أحلام" إذ يقول: "في اليوم التالي . يوم الجمعة . وأنا في طريقي لبقالة "قايد" لأشتري بالأجل البامية أو البازيلاء ، ودجاجة صغيرة لطهوها بعد صلاة المغرب، ثم أذهب لبقالة قايد لأجلس على كرسي مهمل قديم وأستمع للحلقة الأخيرة من مسلسل "هند والدكتور نعمان" من بطولة كمال الشناوي (بالمناسبة لم يذكر القاص الممثلة التي شاركت كمال في المسلسل لسبب لا نعلمه) ويواصل القاص فيقول: "كنت عائدا من بيت الشيخ محمد الأهدل (وهو ناظر مدرسة معلمي بني علي، وحاصل على الماجستير في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) . هذا ما ذكره القاص في الجزء الأخير

من القصة . حيث أشرح لابنه . في مدرسة المعلمين . درسا صعبا من دروس النحو . لم يذكره . قبل الامتحان الذي يأتي بعد أسبوع.

انحدرت من شارع هابط إلى الطريق، ومشت بجواري .. رافقتني إلى البقالة، وحدثتني عن طفلها اليتيم "عادل" الذي لا يتحرك رغم بلوغه الخامسة، وعن بيتهم شبه المهدم بجوار المسجد الجامع الذي نصلي فيه الجمعة ونحضر إليه مبكرين لنصلي ركعتين ثم نقرأ فيه سورة "الكهف" قبل ارتقاء الإمام المنبر ...".

أما حمار "أحلام" فقد كان ضريرا كما أعلمته بذلك؛ وأما " قايد " صاحب البقالة / فقد كان مشغولا بالمداعة وبجواره . على الأرض . خنجره ومدفعه، وطفل وطفلة يلعبان .. وهو جالس بملابسه الداخلية .." .. ووراء هذا النموذج نماذج أخرى عديدة لهذه الظاهرة الفنية اللطيفة الظريفة التي تخلع على أسلوب القص عنده هالة رشيقة من الظرف، وتحقق قدرا كبيرا من الإمتاع .. ولعلنا في غير ما حاجة للإشارة إلى نماذج أخرى، ولمن أراد شواهد لها فعليه قراءة أية قصة من أقاصيص المجموعة ليقع على ما يمتع نفسه ويلذّه ..

وهكذا تجلى حرص القاص الفاضل على رصد الكثير من التفاصيل والدقائق التي استهوته فأودعها قصصه سواء منها ما هو مهم وما هو غير مهم أو ليس للقصة به حاجة ملحة أو شبه ملحّة .. ومع كل ذلك فهي ممتعة وباهرة ، كما أنها تدل بحق على قوة ذاكرته وقدرتها على اختزان تلك التفاصيل التي تمر بها، ولا يعبأ بها أغلب الناس، واستدعائها عند الحاجة، أو قل عند غير الحاجة!

=الحـــوار في المجموعـة:

يشكل الحوار ظاهرة مهمة من ظواهر البناء الأسلوبي للمجموعة حيث شاع في أغلب أقاصيصها، ولم تكد تخلو من آثاره قصة، بل لم تكد تخلو قصة منها من كثير من الجمل

الحوارية التي كان يكسر بها حدة السرد ويتجاوز رتابته .. وقد تكمن أهمية الحوار في القصة فيما يحققه من قدرة على الوعي والإحاطة بالحدث والاستمرار في التواصل معه من خلال التحول عن الطريقة السردية التقريرية الرتيبة إلى الطريقة التمثيلية أو المسرحية التي تقوم على توزيع الحدث وتفتيته في جمل وعبارات محدودة على شخوص القصة واختفاء الراوي الذي كان يفرض وجوده وشخصيته على الحدث .. كما أن مهمة الحوار ودوره أن يسهم في تطوير الحدث وتوصيله للمتلقي بطريقة تمثيلية جيدة تختلف عن طريقة القص والسرد والرواية .. ومع الحوار تصبح القصة ذات بعد درامي .. ولكن لا يجب أن يعني هذا مطلقا تفوق البناء التمثيلي المسرحي على البناء السردي الروائي، وبالتالي تفوق المسرحية على القصة والرواية .. فلكل منها مهمتها وغاياتها، وكل منها ليست أكثر من وسيلة أو طريقة من وسائل وطرق تأدية الحدث وبنائه وتقديمه للمتلقي وتحقيق الغايات المنوطة بها، وإن كانت قدرات الكتّاب والمبدعين تتفاوت فيها، فمنهم من يجيد البناء المسرحي، ومنهم من يحسن البناء السردي، ومنهم من يجمع بين هذا وذاك ..

كذلك يرتقي الحوار بالقصة ويخدم الحدث فيها ويساعد على تطويره إذا كان داخليا وهو ما يعرف بـ"المونولوج الداخلي" أو حوار الشخصية مع ذاتها، والإفصاح عن رؤاها وخواطرها وصراعاتها النفسية ..

وتأتي عناية القاص بالحوار من خلال إبداعاته المسرحية وتمرسه بالبناء المسرحي التمثيلي، وقدرته الفائقة على توزيع الأدوار على الشخوص وتحديدها بدقة ظاهرة ..

وهكذا كان القاص حاذقا في إنشاء الحواريات بين شخوص أقاصيصه محققا ضربا من التنويع في مسيرة الحدث .. كما كان الحوار يأتي أحيانا واسعا ومفصلا كما في قصة "أحزان نادية" والذي يأتي في جانب منه على سبيل

الاسترجاع لذكريات البطلة في حوارها مع محمود .. كما حفلت "الحافلة" /9 بمساحة ظاهرة من الحوار الذي نقل بوساطته كثيرا من العبارات المألوفة التي تتردد على ألسنة الركاب في حافلات النقل العام .. وفي القصة العاشرة "الأعمار بيد الله" ساد الحوار مساحة واسعة منها أداره القاص بين كثير من شخوصها، بل إنه لم يغفل أحدا منهم دون أن ينطقه بشيء منه .. وكذلك قصص 12، 14، 15، 16، 17 شاع فيها الحوار بشكل لافت واحتل مساحات منها تجاوز وتفوق مساحات السرد ..

على أن هناك مجموعة من القصص خلت من الحوار خلوا تاما مكتفية بالسرد وهي 11، 13، 19، 20، 21، 22؛ وتلقانا قصة وحيدة كادت تخلو من الحوار ، ولكن القاص أبى إلا أن يقحم فيها جملة حوارية وحيدة هي قوله:

"يهزّ رأسه ساكتا وأقرأ في عينيه حزنا يصحبه الشك فيكاد يصرخ فيّ:

. إنك لا تزورين خالتك إلا لكي تري حبيبك القديم .. ابن خالتك .. الدكتور حسام.

أما سائر القصة، وكذلك قصته التاسعة عشرة، فإنهما اعتمدتا تيار الوعي وما يقوم عليه من مونولوج داخلي، أو حوار الشخصية مع ذاتها، والذي يتيح للقاص تصوير عالم الشخصية الداخلي وما تمتلئ به من صراعات نفسية .. ويعدّ "تيار الوعي" أهم وأبرز الوسائل الحديثة وأقدرها على تمثيل عالم القصة وشخوصها من الداخل وخاصة في القصص النفسية التي يكون المجال فيها فسيحا لهذا الأسلوب .. كما يتيح هذا الأسلوب "تيار الوعي" للقاص رسم الموقف وتصوير الحياة كما تتصورها الشخصية من خلال عالمها الشعوري واللاشعوري؛ وتكون اللغة في "تيار الوعي" ملتحمة التحاما تاما بالتجربة؛ فهي تستبطن الشخصية والتجربة من الداخل ، عن طريق التداعي الحر للأفكار والمشاعر

والتصورات". (فنون النثر 46).

=الاستـرفـاد:

بقيت من ظواهر البناء الأسلوبي في المجموعة ظاهرة "الاسترفاد" أو التناص التي شاعت بشكل لافت في كثير من قصصها .. وقد تنوعت هذه النصوص المستدعاة أو المجلوبة من الخارج ما بين الشعر والنثر والأغاني وغير ذلك ..

وأول ما يطالعنا من ذلك مقطع أغنية نجاح سلام "يا ريم وادي ثقيف ... في "مجنون أحلام"، ويتكرر المقطع في ختامها ..

كما تلقانا إشارات كثيرة إلى اغنيات أخرى منها "إنت عمري"، و"أهل الهوى"، و"الليلة عيد"؛ وكذلك أسماء مغنين ومغنيات "ليلى نظمي" و"صباح" و"محمد رشدي" ..

وإشارته إلى مسلسل "هند والدكتور نعمان" لكمال الشناوي ..

وفي هذه القصة نفسها يلقانا رأي الشافعي في الزواج من المصرية وهو "من لم يتزوج مصرية فليس بمحصن"!

وكذلك قضية الكفاءة في الزواج التي يشترطها بعض المذاهب الفقهية ..

ويلقانا طرف من خبر السندباد وغرق مراكبه وما أرجف به المرجفون في المدينة عن "عكرمة"؛ كما أن عبارة "المرجفون في المدينة" ذكرت في سورة " الأحزاب " /6 ، وثم إشارة أخرى إلى حادثة دنشواي المشهورة ومشانقها التي أعدت للفلاحين الذين اتهموا بمطاردة بعض جنود الاحتلال البريطاني وقتل أحدهم .. كما يلقانا المثل المشهور "كالمستجير من الرمضاء بالنار" ..

كما أشار إلى قضية معارضة "أبي ذر الغفاري" لعثمان بن عفان ونفيه إلى الربذة ..

ومن النماذج الشعرية التي أودعها القاص بعض قصصه مقطع من شعر محمد الجيار في قصته الثانية ..

ومقطع آخر من شعره في القصة السادسة عشرة ...

وعلى هذا النحو كانت جولتنا التي طوفنا فيها مع الأستاذ الكبير والأديب الأريب الدكتور حسين علي محمد في أرجاء إحدى مجموعاته القصصية الرائعة التي تجسد إبداعه ورسوخ قدمه في فن القص . هذا الفن الماتع العجيب بما وفر لها من تقنيات متميزة، آملين أن نلتقي معه في إبداعات أخرى تؤكد أصالته واقتداره وتفوق موهبته في فن القصة القصيرة، وفي فن المسرحية، وكذلك فن الشعر الذي حظي منه بفرط عناية ومزيد اهتمام، فضلا عن إبداعاته في دراساته الأكاديمية الرصينة!!

مؤثرات شفاهية فى نصوص عصرية

قراءة فى المجموعة القصصية

" مجنون أحلام "

رؤية نقدية بقلم: سمير الفيل

مشاهد من نثار الحياة، وحشد من التفصيلات الدقيقة المرهقة، وحكايات أغلبها شفاهي يتم زجك في إيقاعها المتواثب دون أن تملك فرصة لالتقاط الأنفاس، ثم شذرات من السيرة الذاتية تتقاطع مع بنيات سردية تتضافر حثيثا مع مشاهد جغرافية لسهول وأودية وقفار في مناطق متباعدة لا يجمع بينها سوى البطل ذاته.

البطل المحبط دائما والذي فاتته الفرصة الأخيرة، وأنت حاضر قلب المشهد وعلى كثب من غرائبية العلاقات التي تنسج على مهل، نسجا دقيقا كأنه نول بدائي قديم يصلح لمنحك ثوبا قشيبا من حكايات عصرية.

حكايات تدفعك دفعا لأن تنتحي جانبا وتتذكر ما مر بك شخصيا من صنوف القهر والابتلاء ، وانحناءات الطريق الوعر كي تهدأ نفسا وأنت ترى الحياة بحلوها ومرها، بزهوها وانكساراتها، بطيبها وخبثها.

تلك هي نصوص حسين علي محمد الذي لا يتخلى مطلقا عن نزعته الأزهرية العتيدة وهو يتوغل في مناطق وعرة من النفس البشرية، ويستحضر البشر بأسماء أخالها حقيقية، يضرب في المناطق الحرام في السياسة والأدب، ويعرج إلى حانوت فقير كي يشرب كوبا من الشاي الساخن، وهو يطلق زفرة حارة بأن الحياة دوامة لا تنتهي من المشاكل والمحن، والأفراح الصغيرة، وهي شهادة لا تعوزها المصداقية، لكنها تتلون بألوان الأماكن التي يحلق فيها "النسر" الجريح المنهك.

والنسر يأتي كمعادل موضوعي لرحلة البحث عن لقمة عيش نظيفة في مضارب بني علي، وفي سهول زبيد حيث القرى الجبلية الصعبة باليمن، والتقاليد الصارمة المهيمنة على الناس والمكان، ويتردد التجوال المرهق في شوارع الرياض، وميادينها الملتهبة بحرارة تشوي الأبدان، ثم تمر بحوانيت جدة القديمة لتستقر في نقطة انطلاقها الأولى بقرية صغيرة تغفو قرب النيل في "ديرب نجم"، أو لتعاود البحث والتنقيب عن وقائع في بيوت شعبية في المحروسة وأزقتها الشعبية التي لها رصيد لا يستهان به في النصوص.

لا تهم الأمكنة بقدر ما يبدو القاص حريصا على أن ينقب عن الأحداث، والوقائع، ودلالات التصرفات اللامتوقعة لبشر يعانون الوحدة، والقهر، وسوء التصرف، وأحيانا عدم القدرة على التناغم مع الحياة في مسلكها المتقلب الغريب.

الحكي المتقن:

الحكي هو أساس السرد في هذه المجموعة التي عنونها القاص باسم "مجنون أحلام"، وهو عنوان لا يدل على الأحداث ولا يلخصها بقدر ما يقدم لمحة على استحياء لعلاقة الراوي بامرأة يمنية قابلها صدفة في أرض تدعى "الوصاب السافل"، مات عنها زوجها في حادث ولها ابن مقعد، تتهيأ للحضور إلى القاهرة كي تكمل دراستها العليا. إلى هنا والأمور مواتية فمن الطبيعي أن يتفق الراوي على الزواج من

أحلام التي فتن بها، لكن يبدو أن هناك دافعا قهريا يبدد هذا الحلم، بالرغم من رحلتهما في سيارة صالون إلى مدينة الحديدة التي تبدو بعيدة كل البعد، وحتى الأغنية التي تهز المشاعر:

" يا ريم وادي ثقيف.. لطيف جسمك لطيف.. ..

ما شفت أنا لك وصيف.. في الناس شكلك ظريف".

تبدو مدججة بمعان خفية لا تجعل للوصل سبيلا للتحقق، وهو ما نراه في نصوص أخرى ترصد تلك العلاقة المشدودة لأقصى حد بين الرجل والمرأة، فقانون الواقع غير القانون الفطري للحياة الذي لا نملك تبديله أو تغييره مهما بذلنا من جهد ومشقة.

والحكي الذي يقدمه القاص على درجة عالية من الإتقان لأنه ينحو باتجاه استقصاء المشاعر ونغمات النفس الشاردة التي تختفي وراء الأحداث، ولا يقف عند ترددات الموقف الآني وتداعياته الظاهرة فقط.

ويبدو هذا في انتقاله السلس بالأحداث من الحاضر إلى الماضي، ومن القرية إلى المدينة فيما يقطع التاريخ طوليا ويتفرع منه عرضيا للتعرف على حقيقة الحدث المضمر، والجانب المسكوت عنه بطريقة الحكاء الشعبي الذي يلم بكافة التفاصيل، لكنه يضمرها في ذاته ولا يبوح بها إلا في موقف محدد يكون عليه أن يؤكد أو ينفي.

وهو عين ما نراه في قصته الأخيرة "من التغريبة اليمانية" والتي تشكل نفس قماشة السرد التي رأيناها في قصته الأولى "مجنون أحلام"، غير أنه هنا يتقدم خطوتين باتجاه تقنيات سرد مغايرة فيحذف، ويجمل، ثم يضفي نفسا شاعريا يعبق بالسحر مع أبطاله المعذبين بالفراق، وسوء البخت، والوحدة التي لا يمكن إلا أن تكون حظا عاثرا مماثلا لظروف الطبيعة القاسية، والواقع الذي يسور أفعال ناسه: سكناتهم، وحركاتهم.

لكن القاص يلجأ هذه المرة إلى منطقة مكتنزة

بالغرائبية حين يجعل الطفل هو محرك الأحداث ليتحرك نحو الهامش مكتفيا بالرصد، ويقضم الطفل قضمة من الباذنجانة البيضاء، وننظر إليها وهي تقع على الأرض، فكأنها الثمرة المحرمة، أو هي قرين المهرة الجموح التي تشرد بعيدا في انتظار من يسوسها، والبطل في كل الأحوال لا يتورط في فعل خارج، ولا يمكنه . ربما لكونه غريبا منبت الصلة بواقعه . أن يتقدم للحصول على ما تشتهيه نفسه.

راوٍ مراقب، متيقظ، فطن، يعوزه أن يتحول من حالة الرصد إلى المشاركة والفعل وهو ما لن نعثر عليه أبدا، فالنصوص أقرب ما تكون لشهادات أدبية حول أحداث، ووقائع، وتسجيل أمين لمشاعر ذاتية مرت به في زمن انقضى ومضى إلى غير رجعة.

سألت نفسي: أليس هذا نفس ما تقوم به الدول من الإفصاح عن أسرارها السياسية والعسكرية بعد مضي زمن محدد؟ وضحكت للفكرة، ورنت في أذني قهقهة مجلجلة للراصد الذي يسرد بسخرية مرة لا تفوت على القارئ المحترف أبدا تفصيلات حياة ماضية مكتنزة بالحكم والمواعظ ومصائر الشخصيات، وهو نفس ما نعثر عليه في ثنايا النص القصصي عند الكاتب. إنه يحترم خصوصيات من يتحدث عنهم، لكنه لا يني يحتشد للقص باعتباره وسيلة تسرية عن النفس في زمن الاغتراب، والانكسار، ولملمة شظايا النفس المهشمة!

عوالم حية:

تقودنا نصوص حسين محمد علي القصصية إلى عوالم زاخرة بالحركة والحيوية، فهو يكتب عما يعرف، ولا يختلق حكايات لم يشهدها، ولا يستعير شخصيات من المخيلة، لأن حياته مترعة بالسفر والترحال، والالتقاء بالغريب والمدهش والمحير، لذلك يمكنك بسهولة أن تعثر على مفاتيح تلك العوالم خاصة وأنه يحسن تجسيدها، فتراها أمامك شاخصة، محملقة في الفراغ أو متورطة في خصومة،

أو منشغلة في نزاع مثير للقلق، أو ساكنة تترقب الأحداث في همهمة مكتومة.

هي عوالم تظهر لنا بجلاء مأزق الوجود الإنساني، وحيرة الشخص إزاء قوى ضاغطة تحاول أن تستلبه السعادة، أو تشوش عليه فكره، وفي أغلب الأحيان يرصد لنا القاص الواقعة دون أن يعلق عليها، فهو يكتفي بأن يزيح عنها غبار الزمن كي نشاهد بأعيننا الأحداث كما جرت بالضبط حتى لو كانت في قفر بدوي كما في قصة "أم داليا" وهي عن فتاة مهندسة حملت سفاحا، فنست الأم تعليمها الجامعي وتحولت إلى قاتلة بأن استدعت عمها سعفان شيخ قرية الصوالح الذي ذبحها بيده ، وتركها . هي الأستاذة الجامعية . تواجه تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد. والمتابع لهذا النص يلمح إدانة خفية لسلطة الأعراف في مجتمع يحاول أن يتحرر قدر الإمكان من قبضة المجتمع القاسي في أحكامه، وقد أجاد الكاتب رصد اللحظات الرجراجة التي تشظت مع فعل القتل، حتى أننا نتعاطف مع القتيلة ومع الأم في ذات اللحظة، ويهزنا أن نعرف أن أباها ضابط المظلات قد غادر الدنيا وهي طفلة، فالبنت تدفع ضريبة السلطة المطلقة للأعراف والتقاليد، وبتفاوت ملحوظ سيكون من المثير أن نعثر على ضحية في قرى دلتا مصر أو في الوصاب السافل باليمن، أو في باحات العليا بالرياض. فالمسألة أن الفضاءات المطلقة للفعل الإنساني تضيق، وتبصر ذاتك واقفا في العراء بمفردك حيث تتحرك طاحونة الحياة بدون قلب لتطيح بالخارج والمارق، وربما الحالم ، والشفاف.

عوالم من أساتذة جامعيين، وأطباء، ومهندسين، وصيادلة ، ومدرسين، وأجراء يتحركون في الغربة فينكشفون تماما، وتكتشف معهم أن الإنسان يعيش حياة قلقة تخلو من الوسامة، ومن الملاحظ أن السفر ملمح أساسي في كتابات حسين علي محمد بتنويعات مختلفة، وبتعرجات متباينة.

فإذا علمنا أن الإنسان يكون في سنوات الغربة فاقدا الاتزان إلى حد ما فسوف يصدمك أن تواجه عوالم ضارية من المتع المختلسة والسقطات التراجيديا المذهلة جنبا إلى جنب مع ومضات لا تخفى لأناس يتسلحون بالحكمة وطول البال، والفطنة، والدهاء في أحيان كثيرة وحسبما تقتضيه الأمور. الغالب في صدارة المشهد هو البحث عن سعادة مستلبة، ومحاولة الانفلات من قبضة الزمن الغادر الذي لا يعرف رحمة ولا مهادنة.

متعة الشفاهي:

للقاص أسلوبه المميز في حكيه الشفاهي، الذي يقترب إلى حد كبير من أسلوب عزف الربابة الذي يجيد التقاط ذبذبات النفس البشرية وعزفها على وتر مشدود ليثير انتباهنا. وفتنة هذا النوع من السرد تنبع من اختراق معلن لطبقات الحدوتة فهو يقدمها في قالب إبداعي مشوق، وبالتأكيد تعثر على أنفاسه، وأفكاره، لكنه في العادة يترك مسافة مناسبة بينه وبين الحدث حتى لو أنه البطل الذي تجري عليه الأحداث مثلما نجد في قصة "لن يكلم نفسه في الشارع" فبطل القصة هو الراوي نفسه، وهو المؤلف، يأخذ مكانه في النص بكل سهولة واقتدار، يسرد الأحداث بقلب مفتوح حتى أنك لتشعر أنك مقصود بذاتك كشخص قريب ومشارك.

لم تعد لدى حسين علي محمد هذه المشاكل الناجمة عن وضع حدود فاصلة بين ما ينبغي وما لا ينبغي؛ فسيرة حياته هي المادة الخام التي يشكل منها فضاء النص، والجميل أننا نعرف كل شيء عن متاعبه، أرقه، اختلافه مع ابنه، زيارة مدينة جدة، وبحس فكاهي أبوي سادر في الحميمية يقول القاص:

" قلل السرعة، حتى نستمتع بهذه اللحظات الجميلة في شوارع جدة، وحتى لا تؤذي حفيدي". نستسلم مع السرد الجميل لفكرة التسامح، والنزوع القدري الذي يحوم في فضاء

المجموعة، حيث تجزي الأقدار بمشيئة ربانية علوية. ومهما بذل البشر من جهد وتعب فثمة قوى حاكمة علينا أن نكون حذرين في التعامل معها وإلا أصبحنا خارج السرب.

كل هذا يمرره لنا السارد بقدر كبير من البساطة، وببلاغة حكي متكئة على تدفق طيع للحدوتة التي هي عصب النص، وسيكون من الجميل أن تكتشف كقارئ للنصوص أن هذا القدر من الحكي الشفاهي التلقائي يمد الكتابي بعناصر قوة وتماسك من حيث المعالجة البسيطة التي لا تعرف التكلف، ولا تستنيم للحلول الجاهزة.

الحكي الشفاهي الذي يجيده حسين علي محمد يتسرب في مهل لنسيج النص فيملأ المساحات المسكوت عنها بماء الحياة. ألم يكن من الضروري أن نعلم تفصيلات العلاقة المتأرجحة بين الشك واليقين مع الزوجة، وهي الراوية التي يعيش معها هاشم في أزمة عدم ثقة رغم براءتها الظاهرة لنتغلغل في أجواء أسرية تتشابك فيها المصائر والأقدار بصورة تبعث على الأسى كما نجد ذلك في قصة بديعة هي "بيت خالتي".

تدفق الأحداث:

يحرص القاص على لغته الفصحى، فيسوقها على لسان الشخصيات بطريقة سليمة، دون معاظلة أو تقعير، وهو يعتمد على أسلوب الحوار الحي الذي يفتح مسام النص، ويرتبط بالموروث الكتابي في استيحاء تعبيرات بلاغية رصينة، كل هذا يمكن تلمسه واستحضاره غير أن النغمة المائزة في تلك الكتابة التي يشيد بها الكاتب معماره الفني سلاسة الحكي، واللغة السهلة الممتنعة التي تقرب العوالم البعيدة حتى تحيلها أمامك ناصعة مرئية، وثمة نقش باللغة في مناطق معينة لدرجة تقترب من تخوم الشعر، وغواية اللعب بالكلمات، فيفضي النص إلى عوالم زاخرة بالأحاسيس المتقدة بالدفء، مع مساحات من الإحساسات البصرية

والسمعية والشمية التي يجيدها في أثناء القص.

بلاغة السهل، القادر على التخييل دون مفارقة الواقع والعلو عليه، ومن المدهش أن النص لدى حسين علي محمد كلاسيكي لكنه يعرف الجنوح في مفصل ما، ويعترف بالانحراف المزاجي في مفصل آخر، وهو يعتمد على أن يدفع بالعلاقة الإنسانية لأقصى حدودها كي يكون المتلقي طرفا في عملية استقبال القص شفاهة وكتابة، سردا وإيقاعا.

مثل هذه السمة في أعمال حسين علي محمد تعيدنا إلى حميمية اللحظة التي يتخيرها في صرة النص، فهو يقبض على لحظة تأزم، ويتداخل بأسلوبه السردي لبيان اللحظات الحاكمة في الفعل الإنساني، وهو في هذا يمتح من مخزون خبرات لا حدود لثرائها، تجارب السفر والارتحال خلف العمل حيث الأمكنة تفرض ظلالها على البشر والأحداث، حكايات الترحال بكل تأزماتها ومشاكلها، مفارقات السلطة في تعاملها الغشيم مع الأفراد.

واخيرا يأتي تواطؤ الصامتين في معمعة الأحداث عندما يتعلق الأمر بالداخل المليء بالمصاعب، فلم يكن من الصعب أن يكتشف الراوي أن حافظته قد سرقت منه وهو عائد من الجامعة.

لحظة الاكتشاف هذه تعيده لدائرته الصغيرة في الجامعة وتمتدحتى أقصى أفق البلدة، فتعيد تأمل حياة طبقة اجتماعية مهمشة تعاني الأمرين للحصول على لقمة الطعام، و بالكاد تحصل عليها. قصة "الحافلة التي لم أحلم بها".

محمود الذي ضاعت حافظته ومسودة قصة جديدة لم ينته منها بعد، وحوالة بريدية من الأب الفقير يستعرض حياته فنشاركه أحزانه المتكتمة، ونتعرف عبر سياق ترتبي للذكريات على عوالم متقشفة وشخصيات متميزة بوفرة معاناتها على المستويين الحسي والنفسي.

ذاكرة القاص تمزج بين الخاص والعام في نوع من

التبادل والتوافق الممعن في خصوصيته حيث المأثور الفردي والميراث الجمعي يشتبكان بلا تفرقة حتى أن فعلا كالموت يتم سرده بطريقة تلقائية كأن من الطبيعي أن يمر به المرء في قدريته وعبثه الممعن في اللامعقول، فهيفاء التي تقف على أعتاب الثالثة والعشرين تدفع حياتها ثمنا لحقنة بنج خاطئة، وهي مسألة قد نقرأها في الصحف اليومية، ونتعجب لها، غير أن يد القاص وعينه اليقظة المدربة يحول الحكاية إلى متوالية سردية متدرجة الصعود في دراميتها، وعن طريق تتبع الخيط السردي تتعرف على كل أسرار الريف المصري، حيث تجرى العمليات الجراحية في حجرة مبنية بالطوب اللبن لا تتوفر لها شروط السلامة للمريض، وحيث لم يحصل الطبيب على شهادة تخصص دقيق في الجراحة .. قصة "الأعمار بيد الله".

مثل هذا السرد الذي يسري سريان النار في الهشيم فيبسط أسرار القرية المصرية، وأوجاع ساكنيها، وكافة المفارقات التي يعج بها الريف بعلاقاته العجائبية ومفردات حيواته يتكرر في العديد من النصوص حينما يتبسط الناس في القول فنطّلع على أحوالهم في العزب والكفور، في البيوت المتداعية القديمة، والأزقة، في أسواق القرى وساحات الذكر، وربما في التخوم الفاصلة بين المدن المتشحة بالخديعة، والريف الممعن في الخرافة والظلام والدجل.

الحس السياسي الساخر:

على الرغم من أن القاص قد سافر فترات طويلة خارج مصر إلا أنه استطاع أن يعكس المتغيرات السياسية التي ألمت بالبلاد، وأمكنه استيعاب التحولات العميقة في البنية الاقتصادية والصعود الاجتماعي لفئات من البشر الذين صعدوا في سنوات السبعينات بعد الانفتاح الذي غير معالم البلاد بصورة اهتزت معها منظومة القيم.

بدأ القاص تجربته كلاسيكيا، حيث تمثل المنجز القصصي التقليدي، وربما تأثر بكتابات جيل الوسط في بداية

كتابته، لكنه تخلص بعد ذلك من كافة المؤثرات وانطلق ليشق طريقه راصدا حجم التحولات في واقعه، خاصة في الريف المصري الذي خبره، وكذلك في المدن التي كان على علاقة سكن وتحاور معها طيلة الوقت.

الأحداث عند حسين علي محمد . في الغالب . تتبنى مفهوم الحبكة التقليدي، بالمفهوم الكلاسيكي الذي نعرفه، والذي يعتمد على مبدأ أساسي هو "الوحدة" بمعنى أن خط سير النص يتدرج من بداية إلى وسط ونهاية مع وجود لحظة الذروة. لكن القاص في كثير من الأحيان يلجأ إلى التلاعب بالنسب فيحذف المقدمة، ويتجه إلى اللحظة المتأزمة مباشرة، أو يغفل الوسط ليقدم مشهدا متشظيا بين بداية ونهاية، المهم عنده أن يضبط إيقاع الأحداث بحيث يصل إلى نقطة التحول الرئيسية في حياة الشخصية، وهو ينجح في استقطار الدلالة عبر مكابدات الواقع وتحولاته.

وهو يلج إلى الأحداث عبر سرد موثق بالتاريخ الذي يستعيده في لحظات تأزمه، وبالتحديد الحديث عن هزيمة يونيو 1967، او حرب أكتوبر 1973، مع لمحات خاطفة عن الخروج من سجون النظام الذي حاول أن يلجم كل صوت له استقلاليته.

تتداخل الخيوط، وتتعقد في مساحة حوار تتسع بكل الرؤى والأفكار، وهو حس روائي يذكرنا بأعمال كبيرة مثل "ميرامار" لنجيب محفوظ، غير أن الحس الساخر الذي يؤطر الأحداث يشعرنا دوما أن القاص يحاول أن يوثق فكرا أو يحدد موقفا عبر فنيات السرد التي تعتمد هذه المرة على الحوار. فشخصية مثل حسام منير الذي خرج من السجن اتجه إلى بلدته ليكون قنديلا ينير في الظلام، معتمدا على ذاكرة حية تحلم بالمستقبل حلما لا يتوقف.

يخاف الرفاق السابقون من نصوصه المسرحية، ويكتفي بالتأمل الهادئ لما حدث. لم يكن هناك بد من

الاعتراف أن الثورة تأكل بنيها . قصة "في المدى قنديل يضيء".

هذه النبرة الحزينة التي تفيض بالسخرية المرة علي أحوال جيل دفع ضريبة الرأي والاعتقاد، ثم هادن بعض رموزه السلطة لقاء منصب أو مقعد هو من الثيمات التي تجدها عند حسين علي محمد في العديد من نصوصه. هذه النبرة المتأزمة والتي تفيض باللوم تتسلل في مفاصل عديد من النصوص التي لا تضع الدوال في مرتبة عليا، بل تحركها في حيرة المحير والمعذب بتاريخ ثقيل يحمله فوق ظهره . حسب تعبير الدكتور سيد عويس . فيتغلغل الحس السياسي مع الرصد الدقيق لتحولات الرموز، وانكسار الإرادة في منعطفات هامة من تاريخ مصر المعاصرة.

مثل هذه اللمحات الساخرة يلخصها في عناوين نفاذة مثلما نجد في قصة "تلك الليلة" وهو عمل جريء في طرحه، حيث يهرب عثمان من سجنه، ويتوجه إلى قريته، بينما تتردد في ذهنه كلمات صديقه الناصري صبري عبده: "أنت واهم إذا ظننت أنك ستغير التاريخ"، وهي مقولة يدعمها بتعليق ساخر ذي دلالة عميقة: "الزعماء وحدهم هم الذين يغيرون التاريخ والجغرافيا أيضا"!

ليست المسألة مقارعة الرأي بالرأي النقيض، بل هو في اكتناه آليات حركة التاريخ العربية التي هي نتاج وضعية فكرية معقدة، وخلاصة وضعية اجتماعية ترسف في الجهل والتخاذل.

موال السفر:

يتعقب القاص حكايات السفر والارتحال في أحداث عاصفة تارة، وهادئة تارة أخرى، ومع تقنيات كتابة تنفذ من الدوال إلى المدلولات بطريقة رأسية، وتعرجات أفقية، الأولوية فيها لأحداث حقيقية، موجعة، أسرية، بها أسرار مغلقة لأناس يعيشون على شفا الحرمان، تضج أنفسهم اشتياقا والتياعا لمفارقة المحبوب، أو اصطيادا للحظة صفاء

نادرة، وربما من أجل استبصار ملامح مشهد قديم.

في قصة "اللهم أخزك يا شيطان" والعنوان هو عتبة هذا النص الذي يكشف عن سيكولوجية النفس البشرية في تقلباتها، فسمير يعالج مشاكل صباح، ولكنه يشعر بأن خيوطا غامضة تكاد تجذبه نحوها. وبالرغم من زحمة الأحداث، وتداعيها على نحو يثير الغرابة فإن الكاتب يمد خطوطه حتى النهاية، فالعبارات تتسم بلغة شفافة رائقة غير حوشية، في تعاملها مع الأحداث كما نجد في "شرخ آخر في المرآة"، حيث نورا تحدق في المرآة لتعبس صورة زوجها الراحل في شحوب، وهنا يتأكد لنا أن القاص يرصد فعل الزمن، كما سبق أن رصد تحولات الأمكنة، بلمحات حكائية عابقة بتاريخ الشخصيات المنهكة بأحزان منتهكة، وإرث موغل في القدم.

في القصة التي أشرنا إليها يتسع المجال للمونولوج الداخلي، وهي إحدى تقنيات السرد، وفيه تسلل هادئ ورصين لمسارب النفس وتموجاتها السيكولوجية، غير أن ما يلفت الانتباه لنصوص حسين علي محمد الأسلوب المميز الذي يتكئ على إلمام كاف بفقه اللغة، وإمكانية التشذيب والتشذير، والنحت دون تخوف الوقوع في الخطأ.

وإن كانت المرآة هي التي كشفت ضياع العمر في سراب ووهم حقيقيين، فإن العبارات المجنحة للكاتب تقتنص الملامح الخاصة لكل شخصية مثلما هو الحال في قصة "أحزان نادية"؛ فالشخصية هنا تواجه أزمة نفسية طاحنة لأن محمود غدر برفيقة عمره، وتزوج بناهد الفتاة الساقطة دون أن يأبه لمشاعرها أو يشعر حتى بلحظة أثم!

مشاعر متأججة بالحقد أو الغيظ أو الكره، تحولات لنفوس ضعيفة لا تمتلك الإرادة، وأخرى باطشة، هنا تختلط الشخصيات، وتتقاطع في سيرها الدؤوب باتجاه محنة متوقعة أو مأساة منتظرة. ما يخفف عنها الثقل الناجم عن فظاعة المحنة أنهم بشر يحدب عليهم القاص في صبواتهم،

نزواتهم، مؤامراتهم الصغيرة، زهوهم المتأرجح مع الزمن.

القاص يمضي في سرده بعناية وإحكام، يطلق المخيلة دون أن تفارق الواقع، يتوغل في تهشيراته دون أن ينقل المشهد حرفيا لأنه يعمل بمقصه الفني ليقص الزوائد، ونثار الحكاوي الثانوية التي تأتي من هنا وهناك، فهو لا يستسلم مطلقا لغواية التداعي الحر. لكنه يسلم نفسه لمنطق فني يقوم على عنصري الانتقاء والمصادفة، ونادرا ما تراه معقبا أو واعظا إلا في بعض عتباته: عناوينه، فيلونه بروح الشعر، ونبرة إيقاعه المكتنز بالاختزال.

يتأمل القاص الطبيعة البكر، فهو ابنها، ويتداخل في حيوات بشر يحبهم، ويزعجه منهم أنهم دائمو السخط على مصائرهم بالرغم من أنهم يحددون طرقهم نحو اللذة المختلسة، والنشوة المتحققة على امتداد حرمان سنوات طويلة. ينجذب السارد إلى حكاياتهم، ويستعيد تفصيلاتها بكثير من الأسى، وهو يصنف مسلكهم: نور ، ونار. جسد وروح. خير مخاتل، وشر صريح.

في كل الأحوال لا يقع على مشهد ناجز منته، هو يسرد، ويتوافق مع الحكاية، كما يعمد إلى البشر الذين جاورهم، وعمل معهم، أو أوصلوه إلى المدينة التي يقطنها، عاد معهم إلى قاع الريف، ربما يتأمل سحناتهم في شيء من الامتنان والرضا أن تظل فتنة الحكي قادرة على أن تتلبسه، وتحول واقعية الحياة المكرورة إلى فن سردي جميل يمتع العين، ويسعد القلب، فيما تمتد بصيرته إلى حيث يمكنه أن يستشرف التخوم البعيدة: إلى أقصى الآفاق، عليه وحده مسئولية أن يعيد للحواس متعة أن ترى المشهد القصصي كأوضح وأبهى ما يكون!

منطق الكلام:

كان القاص في تجارب الحكي التي يسوقها لنا يتكئ على منطق السرد الشفاهي، وهو منطق يعتمد على تداعي الأحداث دون ترتيب، وعلى اختراق المناطق السرية

للشخصيات عبر تيار الوعي أحيانا، أو من خلال التداخل الحر في نسق الحدوتة، وهنا يسعى الكاتب إلى الاختزال مما يدفع الحكاية إلى مناطق الكشف، وهذا يتسبب في ظهور جوانب درامية على نحو بارع مع التهيب في تخطي الأنساق المعرفية المتكتم عنها. تتعدد الشخصيات مع اتساع مدى رصدها بالتنقل الرشيق بين حركتيها الواقعية والفنية، وقد يتجه السارد إلى المونتاج الذي يتأطر بالمؤثرات الصوتية والبصرية، كما نجد في نص "برق في خريف".

والخريف هو العمر الذي يتسرب من بين أصابع الزمن الجهم القاسي، حتى تظن أن هناك مؤامرة محكمة على هذا الجيل الذي انهزم دون أن يطلق طلقة واحدة، وحارب فانتصر ثم داهمته سياسة الانفتاح فأطاحت بجل أحلامه. هو كاتب وطني ، وهي قارئة نهمة وبينهما حب قديم، وثمة مشاهد تعبر عن حالة القلق والحيرة التي عاشها هذا البطل الذي يشعر أنه يلاقي حبا مضمخا بعذاب سنوات بعيدة انقضت:

"ظللتُ أنتظرك عشرة أعوام.. فلماذا تأخرت عشرين سنة؟!

قال ابن الخامسة والخمسين في هدوء:

بل افترقنا ثلاثين".

هذا التماهي في الزمن بين الوقت المادي المعلن وبين أزمنة سيكولوجية مضمرة في الذوات التي تتلاقى صدفة في محطات القطار، وعند مفارق الطرق ونواصي الشوارع نجدها في أكثر من عمل، وهي تؤكد نزعة التأمل في مصائر شخصيات تضمر الحزن وتخبئ أوجاعها في صمت شجي.

أليس هذا هو نفس ما ينتاب صبري عثمان في نص "اصطياد الوهم" حين تمر عشر سنوات كاملة قبل أن تقع أعين ليلى زهدي على هذا الصديق الذي دخل السجن في كل العهود، ويريد أن يخفف العبء عن نفسه كي يمرروا له عملا مسرحيا واحدا دون جدوى!

الاتهام مرفوع دائما في وجه الكاتب سواء اصطدم مع السلطة أو حاول أن ينفلت من قبضتها. منطق الكلام ناقص ولا يصلنا بالحقيقة، فقط هو يحوم حول الوقائع فيجردها من منطقها الأصيل، ويلبسها بعضا من الوهم الذي يخدع أو يشف عن نصف الحقيقة. يمكن أن نسمي البعد المعرفي هنا بنظام الترميز الذي لا يحقق إشباعا كاملا لنسق التعامل مع بنيات المعرفة في تشكلها. لا أحد يمكنه أن يقوم بمهمة سرد يغطي الحقيقة كاملة دون نقائص أو ثغرات.

لذا فيمكنك أن تلمح في نصوص حسين علي محمد هذا القدر من الاعتراف بحقيقة أن المعرفة نسبية، وأن الحياة تحتمل الرأي ونقيضه، وهذا الأمر يمكن أن يكون سبب ما يتعرض له أبطاله من محن ونوازع قهر، وامتهان يومي، وعسف بالأرواح خلال مسيرتهم حيث تتلون الأفعال حسب تحولات الحياة، وتغير الواقع حسبما تقتضيه مصالح الطبقات الجديدة، وأمزجتها، والمفاهيم المستجدة التي لا تراعي غير ما تطرحه معايير القيم الجديدة: "إنها أسوأ مسرحية مونودراما لممثل واحد. صفق صبري عثمان بشدة يطلبُ شايا سادة، متوسلا إلى النادل أن يُخفض صوتَ المذياع لأنه يريد أن يكتب الفصل الأول من مسرحيته الجديدة "لماذا يغضبون مني"؟

هذا الحس الساخر يؤطره وجود حر لمن يعيشون في الهامش حيث يتم على الدوام نقض المركز، وهي رغبة عارمة لدى الأفراد الذين ينتهجون أسلوب الانتقال من الهامش إلى المتن مهما دفعوا من ثمن مقابل ذلك.

والشيء الغريب هو أنهم يفشلون كل مرة في مسعاهم، فيعودون بخيبة أكبر، وتتساءل معنا: هل هو قدرهم، أم أنه لا توجد ثمة فرصة لهذا الانتقال الذي يكسر حالة التراتب الاجتماعي الذي نبصره في نصوص تتسم بالوضوح والبساطة والاجتراء على سلطة النفي المستمر لحقيقة الواقع عبر تشكلاته العسيرة؟

كيف يكتب؟:

توقفت طويلا أمام النصوص التي يختطها قلم حسين علي محمد لأسأل نفسي عن خطة الكتابة لديه، وعن الطرائق الحكائية التي يعتمدها في السرد، وبغض النظر عن الشفاهية التي دللنا عليها، وعن الحس الساخر الذي يمكننا العثور عليه بسهولة، وعن رنة الابتهاج بالحياة رغم ما تصدمنا به طيلة الوقت من مكابدات وأحزان فهناك خيط سري سحري يربط النصوص كلها وهو القدرة على الإبانة، والرغبة في الإفضاء والتوجه الحثيث نحو دوائر التأثير البلاغية والجمالية كي يحتويك السارد عبر ما يبثه في النص من صدق فني يتوسل له عبر لغة بسيطة، وحكايات واقعية، ومواعظ أخلاقية، وكشوفات جمالية كلها تتحول في يده إلى نهيرات تغذي الحدوتة التي تعتمد منطق التداعي لكنها، وبالأساس تستأنس بالقدرية، والاستسلام التام لما هو "مكتوب على الجبين .. ولازم تشوفه العين"، وهو منطق البسطاء في بر مصر، وسلواهم إن اشتد بهم الضنك، وعضهم الفقر أو البرد أو السلطة بأنياب ظالمة.

هذا المسلك الإنساني الريفي في تكوينه الأول يتخذه حسين علي محمد حيلة للتوغل في ثنايا الحكاية، فهو يعرف . ربما لأنه البطل أو القناع في معظم النصوص . أن الحياة لا تحتمل الكذب والتمويه والإخفاء: الإنسان يعيش مرة واحدة، وعليه أن يرضى بالمقسوم، ويلتمس في شرور العالم خيرا في أيام أخرى.

هذا الحضور القدري الكثيف نلمسه في نسيج الحكايات وهي تتلى، كأن القاص يعيد ترتيب العناصر البعيدة التي لا رابط بينها، وهو ينفحها من روحه ما يعيد لها الانسجام، فكأنه يوجد من العتمة نورا، ومن الظلم عدلا، فكل ظالم له نهاية، وكل تعب يعقبه راحة، ربما تغيب البهجة أحيانا، وتتسربل الحكمة في ثوب حزن عتي، لكن المؤكد أن الكاتب قادر على رؤية الجمال خلف صفحة القبح، ولديه حدس من

يكتشف الفرحة ويشعر بها وسط جهامة الواقع الذي تنكسر له النفوس الرقيقة.

هناك مرح عفي وتواتر للوقائع المدهشة، وحضور للهامشيين في سفرهم هنا وهناك من أجل لقمة العيش، وثمة محاولات أكيدة لكشف الدجل وفضح المتواطئين معه. أقرأ قصة "سره الباتع" وستدرك أي ريف عاشه الكاتب، وأي غشاوة انقشعت عن أنظار هذا السارد الذي رأى كل شيء، وشارك الفلاحين عيشتهم البسيطة المقترنة بالخرافات التي اعتلت الواقع لتحل محل الحقائق، وبها يفك الناس طلاسم الحياة، وعبر رموزها يعبرون عن سخطهم بطرقهم البدائية التي تمنحهم السلوى والرضا عن مصائرهم المحتدمة بالسقوط أو قلة الرزق أو الترحال أو المرض.

لا يقدم الكاتب سرده ليدين الواقع ، ولا ليكشفه فقط، بل هو يحرر المتلقي من ثقل تلك الخرافات حين يعريها تماما، وينفلت من حكم التراتب الراسخ، فيتمرد بالكتابة على وضعية القرية المصرية، دون أن يتنصل من مسئوليته ككاتب، ومن علاقاته مع الأرض والبشر الذين يحبهم ويحدب عليهم. غير أن في كتابة حسين على محمد "خبثا محببا"، و"فصاحة الابن الذي فلح"، و" فهو في كل الأحوال ابن الطمي وصنو النهر دون أن يغفل طرائق الكتابة الأولى المحملة بالعفوية، والتنوع، وحمل تراثا عريقا لا يفرط فيه. انظر إليه في جمله وعباراته الحية: "يا ابن الأرض، ها هي الريح بجانبك .. تدفق الدماء في الجسد، وتزهو الريح لأنك نبتها الذي لم ينحن، وتقول: ستقتلع وحشَ الغابة الذي يهددك بالمحو، ستنتصر على الغريب، فلا تخف .. وهاهي الخيول تقول: إنها أحبتك منذُ رأتك .. تُحاول أن تضمك لصدرها بقوة، بعد أن كانت قد ابتعدت زمنا" .. قصة "عكرمة يرفع السلاح".

تتعدد الأصوات، ويحضر الكاتب بوجهه سافرا تارة، ويختفي تارة أخرى، يغيب ويحضر، يبتعد ويقترب، وتظل

هناك سمات أساسية لا يمكنك إلا أن تضعها أمامك كراصد لفنيات النص القصصي عند حسين علي محمد، منها وحدة المستوى اللغوي، وقدرته على تجسيد الحدث بفنية عالية دون أن يقع في أسر النمط، فكل نص له منطلقاته وفنياته، والانزياح المعرفي الذي يشتغل عليه مزاج الفنان، وهو مع الهامش ومن خلاله يزيح المركز قليلا، ولا يعتمد لغة ثابتة بل يراوح بين لغة شفاهية في الحكي، ولغة الفصحى في الحوار، مع رصد مشهدي لوقائع تكتشف أنك مررت بها فعرفت سحنات البشر، ومؤامراتهم المعتادة، وتفصيلات من أسرار خفية تكاد تكون هي نفس أسرارك مع اختلاف طفيف في التفصيلات.

فقط علي أن أحترز من العناوين التي تقترب من فكرة الفخامة في المعالجة فهي تعمل على تأطير النص ببلاغتها القديمة، وتحاول أن تقدم نموذجا في الإشارة لصرة الحدث إن أمكن. هناك عتبات مثل: "الأعمار بيد الله"، "النظر إلى الخلف"، "بلا دموع"، "بيت خالتي"، "تلك الليلة"، وهي كما نرى تحاول أن تلقي ضوءا على الموضوع الأساسي، وفي المقابل هناك عناوين ذات ظلال متدرجة، بديعة في تراكيبها مثل: "شرخ آخر في المرآة"، "رحلة أخرى"، "في المدى قنديل يضيء"، والعنوان الأخير يدفعنا دفعا لإشارة نقولها على استحياء، وهي أن بعض نصوص المجموعة تومض بنفحة شعرية أصيلة في مقاطع بعينها، وهي مشكلة مع كتاب يستسلمون لغواية الإيقاع وذلك النزوع للاغتراف من بحر الشعر، والجميل عند كاتبنا أنه كان حذرا للغاية، وكان صارما وحاسما في استبعاد أي دخول شعري من خارج النص، ولكنه آثر أن تكون هناك شخصيات حالمة، وأجواء شعرية لا بأس بها بعيدا عن أي سقوط للنص السردي في قبضة الغنائية.

خاتمة:

نصوص تعلن عن كاتب يغترف من المخزون الشعبي، ويتكئ على فن الحكاية، سنده السرد الشفاهي الذي لا يعرف

حدودا فارقة بين الواقعي والتخييلي، وهو في بساطته وتلقائيته لا يغامر بالدخول في سراديب القصص المغلقة في تراكيبها أو بنيتها. يمارس كتابته حول موضوعات يعرفها جيدا: الريف المصري، التغريبة، السفر والترحال، ذكريات الحب القديم، شحوب الماضي المعلن لأبطال خذلهم الزمن، وهي نصوص تعترف بالانزياح المزاجي، فليس لها معيار فني ثابت سوى الاجتهاد في أن تكون "الحدوتة" طازجة، ومؤثرة، لا اختلاق فيها ولا تلفيق.

كتابة بعيدة عن القوالب الفنية الجاهزة، لا تنشغل بتقنيات الحداثة، ولا وهم المركز. أكاد أقول إن حسين علي محمد يضع يده على كنز من حكايات الواقع دون أن يكون مقيدا بنفس النسق التراتبي لعناصر الحبكة ونمو الدراما الأرسطية. هو يغامر وينفلت، وما أجملها من مغامرة ولدت لنا هذه الكتابة العفوية العفية التي تؤكد لنا قيمة أن يصبح النص أفقا مفتوحا للإطلالة على البشر في صبواتهم وأحلامهم، ومعيشتهم بعيدا عن شعائر توثيق القص لصالح واقع ثقيل يجثم على أنفاس الكاتب والمتلقي على حد سواء!

القاهرة 15/ 12 / 2004م

آراء في بعض قصص المجموعة

(منتقاة من «موقع القصة العربية» على الإنترنت)

مجنـــــون أحــــــلام

جمال علوش

أخي الحبيب الدكتور حسين علي محمد:

لم أفاجأ، طبعا، بجمالية القصة وروعتها وتقنيتها المعجبة، وأنا العارف بأنك مبدع ومتألق دائما.حقيقة أنني استمتعت بقراءة القصة، وأعدت قراءتها أكثر من مرة ، وإثر كل قراءة ، كنت أجد فيها شيئا جديدا . تفاعلت مع بطلها و(ذوبانه). شعرت انه يمثلنا، في لحظة ما، من زمننا الهارب، ويجسد مكنون وجع طالنا ذات حزن ...

أما أحلام فهي (نجواي) التي استحوذت على كياني ذات صباح ربيعي، واستوطنت ذاكرتي، وجلدتني بسياط فرح لا يوصف. يسجل لك، أيها الجميل، أنك جاوزت (إقليمية) لتصنع (وحدة)، ولكنها (وحدة) من نوع خاص.. وحدة بعيدة عن عقم أكاذيب الساسة، وقريبة من وجداننا وآمالنا وتطلعاتنا.

دمت مُبدعا.

موقع القصة العربية . في 2004/3/10م

مجنـــــون أحـــــــلام

د. أيمن الجندى

هل أقول رائعة؟ هل أقول بديعة؟ هل أقول تفيض شاعرية وشجنا وحرفنة في كل حرف وجملة وسكنة ووقفة. شكرا لك يا دكتور فقد أهديتني بعد قراءة قصتك شيئا هاما جدا وهو التواضع الذي لا بد أن ألزمه بعد أن قرأت قصة لا أستطيع بقينا أن اكتب قصة في شاعريتها وعذوبتها وحرفيتها. ينبغي أن اقرأ أعمالك السابقة في تأن فلو كانت قصصك السابقة بمثل هذه العذوبة والشجن فقد انفتح أمامي كنز من كنوز ألف ليلة وليلة. لماذا لم أهتم بكتاباتك من قبل؟.

موقع القصة العربية. في 2004/3/4م

أحـــــزان ناديـــــة

د . أحمد فنديس

مأساة تتكرر كثيرا، الخيانة في عصرنا الحاضر .. عصر الإعارات والريالات والدولارات .. عصر فقدت "العشرة التي كانت لا تهون إلا على أولاد الـ.." مكانتها وأهميتها .مأساة جعلت الأستاذة الجامعية التي طاردها الماضي وطردها من ذاكرته تقول لزوجها السابق . أستاذ الجامعة . اخلع بذلتي يا عرة الرجال .. وجعلته ينظر إلى جسدها الذي كومه النقرس اللعين في تجاهل تام .. ماذا أقول يا د. حسين يا من وفقت في اختيار اسم بطلتي قصتك (نادية وناهد اللعوب) وكان من الأفضل تغيير اسم بطلها "غير المحمود" على ما فعله .. هي مسئولية مشتركة بين زوجين متعلمين متقاربين في العمر .. وهي أيضا مشكلة يشعر بها كل من تخطى الـ 55 عاما من عمره (كان ذلك في 10 يوليو الماضي بالنسبة لي يا زميلي العزيز) أن يكون الفارق كبيرا تظهر المراهقة المتأخرة ويصبغ الشعر أسبوعيا .. أن يكون السن متقاربا تبدأ المقارنة .. وفي مجتمعنا الشرقي إذا جدد الرجل الكهل شبابه بالارتباط بمن هي في نصف عمره (حتى لو كانت ساقطة لعوبا) فهذا يمكن التغاضي عنه .. أما إذا فكرت زوجته التي هي في مثل سنه في مثل ما فعل يمنعها الدين والمجتمع .. مشكلة حلها في الحب الصادق والإخلاص اللذين

اندثرا أو كادا. أين (قلب فؤادك أنى شئت من الهوى .. ما الحب إلا للحبيب الأول) أتراه تحول إلى «جهز جيوبك للإعارة والدولار، ما الود إلا للفلوس ومن دفع». أحداث واقعية تحدث كثيرا أجدت التعبير عنها بكلمات قاص وأحاسيس شاعر.

منتدى القصة العربية. 2003/7/24م.

أحـــزان ناديـــة

محمد عبد الله الهادي

أحزان نادية .. قصة جميلة، وهي قصة (خيانة العشرة) كما قال د . أحمد فنديس من الزوج الذي كان ينبغي أن يحافظ عليها، وترصد القصة بصورة طبيعية مبررة لحدث يمكن حدوثه علي كافة المستويات، وهو تتبع الزوجة المطلقة لزوجها مع زوجته الشابة الجديدة من ذات المكان الذي كانا يلتقيان فيه كمتحابين قبيل الزواج، وترصد أيضا المرأة في حالات هذا الحدث:

فضول المطلقة الأنثوي، الترقب بالعين الحساسة للأنثى المهزومة، الاسترجاع المضيء لجوانب الحدث، المطاردة غير المكتملة، ثم الذروة: بالانكسار والسقوط أرضا بالقرب من الزوج السابق وزوجته الشابة. بسبب النقرس اللعين. دون أن تلحق به أو تطوله يدها ..

وتظل القصة مفتوحة علي وعي المتلقي رغم نهايتها، لا تعلن الهزيمة الكاملة لهذه الزوجة المسكينة، لأنها تشي دون تصريح بين سطورها بمستقبل العلاقة الجديدة، فالزوجة الشابة اللعوب التي (تتمايل في مشيتها كتمايل عارضات الأزياء) لابد وأن تواتيها اللحظة التي تذيقه فيها من نفس الكأس عندما يمضي به العمر سريعا صوب الشيخوخة.

د. حسين ..

تحياتي وأمنياتي لكم بالمزيد من الإبداع الجميل .

منتدى القصة العربية. 2003/10/13م.

النظر إلى الخلف

محمد معاطى

بهذه البساطة وبمنتهى الشفافية والعفوية يبدأ السرد القصصي لقصة من القصص التي كثيرا ما تحدث لنا أو تواجهنا في الواقع ولكن من المستحيل في قصة كهذه أن تتنبأ بالنتيجة أو النهاية التي سوف تصل إليها القصة .. وهذا هو الإبداع الحقيقي لكاتب مبدع ينتقي شخصياته ليوجد لها مكانا في مجتمعنا فنناقشها ونحاورها وكأنها معنا ..

المصادفة تلعب دورها في القصة، والتناقضات تنسجم مع الانقلاب الذي حدث في البيئة الاجتماعية؛ فها هو ابن الفلاح الذي أصبح أستاذا جامعيا وزوجا لأستاذة جامعية يضع يده في جيبه ليبحث عن وسيلة إحسان لامرأة كانت من طبقة أعلى تخيل في زمن مضى أن تكون زوجته، ورُفِض طلب زواجه منها. وتبقى هذه العلاقة ممتدة إلى الأبد طالما أن ابنة سميرة تعمل في مكتب طلحة ابنه .. إنها نظرة إلى الخلف حقا، سوف تمتد معنا بالتأكيد طالما أننا كلنا نحن إلى الماضي ..

ولكنني شممت يا دكتور رائحة طبقية جديدة أفرزتها التغيرات الاجتماعية، حينما صارت هذه المرأة في عيني بطلها الدكتور محمود الأنصاري امرأة سمراء عجفاء تقارب الخامسة والخمسين. ظننها لأول مرة سائلة ولكن لا يمنع أن تهيج الذكريات لقصة حب قديمة استطاع الكاتب أن يعبر سنواتها كلها في نظرة واحدة ..

موقع القصة العربية. 2004/3/22م:

فى المدى قنديل يضئ

لبابة أبو صالح

في المدى قنديل يضيء من ثلاثة فصول .. تتكشف فيها أوراق مكشوفة .. وتتفضح المكامن .. هناك في دائرة ما .. حمراء شائكة روائح غير نظيفة .. بل عفنة وكما تسرب إلى أنفي وأنا أقرأ القصة بعمق ..

في الفصل الأول: كان حسام منير كالذي أفاق بعد طول غفوة .. أفاق ليجد من أخذ بأيديهم (يوما ما) ينامون بعمق من حوله .. فآثر أن يترك النوم .. علهم يتعلمون منه هذا الدرس .. والذي سيكون الأخير.

في الفصل الثاني: عندما يرمي حسام منير بنصه الساحر - الذي يضع يديه على الجرح .. والذي اقترفه بعد أن أفاق من الغفوة - إلى المسؤولين عن قبوله أو رفضه .. كان أكيدا من أنه سيُرفض من قبل أن يُقرأ .. فكاتبه قد أجرم في حق الخطأ إذ لم يصر عليه .. فغُضب عليه .. وفي نقطة أخرى أكثر ضياء تصلنا الرسالة بأن العقيدة تعيد البصيرة والبصر .. وما غيرها من أنظمة ومنظمات تؤثر في كليهما فتطعنهما بالعلل والأسقام.

في الفصل الثالث: تبدأ روائح اغتيال الصحوة و اغتيال الحقيقة مع اغتيال النص .. «هل رفض النص سببه أن حسام منير رفض الانضمام إلى الجوقة .. أم لعودته إلى الدين» في

حين أن الأخيرة منهما هي الداعي الأكبر إلى الأولى (رفض الانضمام) .. وقد صور الكاتب كيف يبني الجوقة رفضهم على حجج واهية يحاولون أن يخرجوا بها بنَفس صادق حريص على أخلاق الشعب .. لكنها تخفي الخوف الذي ينهشهم .. خوفا من كلمة صدق تفضحهم ..

هناك أيضا حالة تهكمية ساخرة .. فأحدهم يقول (لا) بحكم أنها الكلمة المستعملة في الساحة .. وهو لا يعرف لماذا يرددها معهم وما السبب في نطقها رغم أنه منهم !! .. كأنّ الكاتب يقول بأن الانصياع للبقاء فوق الكراسي يعمي أغلب الأحيان ..

في النهاية تصمت الشجاعة الوهمية المرقعة أمام مرآة فاضحة :" . لماذا تخافون من النص وصاحبه قد ترك القاهرة لكم، وذهب إلى موطنه في طنطا، وترك لكم الجمل بما حمل؟!،،،، ولم يُجب!!".

... قصة رائعة بمضمون لا أجد وصفا يفيه حقه .. وطريقة التناول أكثر من مغرية لمتابعة القراءة .. الأسلوب يشي عن المضمون دون أن يفضحه .. يكشف الحقائق دون أن يعريها.. هو يقصد التعرية لكنه لا يصنعها .. بل يأخذنا إليها .. لنعي الإبداع ونصفق بحرارة .. وأظن أن هذا ليس غريبا على الدكتور حسين علي محمد الناقد والأديب اللامع .. كل الشكر لقلمك أستاذي .. تحياتي .

موقع القصة العربية . في 2003/8/31م

المحتـــــوي

رقم الإيداع بدار الكتب
2005 / 11511
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-374-087-0

دار الإسلام للطباعة والنشر
050 – 2250453
012-2614363